

توفيق الحكيم

أشباح ملك الطفيلين

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفيحاء

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السبعار وشركاه

كتب للمؤلف نشرت باللغة العربية

- ١ — محمد ﷺ (سيرة حوارية) ١٩٣٦
- ٢ — عودة الروح (رواية) ١٩٣٣
- ٣ — أهل الكهف (مسرحة) ١٩٣٣
- ٤ — شهر زاد (مسرحة) ١٩٣٤
- ٥ — يوميات نائب في الأرياف (رواية) ١٩٣٧
- ٦ — عصفور من الشرق (رواية) ١٩٣٨
- ٧ — تحت شمس الفكر (مقالات) ١٩٣٨
- ٨ — أشعب (رواية) ١٩٣٨
- ٩ — عهد الشيطان (قصص فلسفية) ١٩٣٨
- ١٠ — حمارى قال لى (مقالات) ١٩٣٨
- ١١ — براكسا أو مشكلة الحكم (مسرحة) ١٩٣٩
- ١٢ — راقصة المعبد (روايات قصيرة) ١٩٣٩
- ١٣ — نشيد الأنشاد (كما فى التوراة) ١٩٤٠
- ١٤ — حمار الحكيم (رواية) ١٩٤٠
- ١٥ — سلطان الظلام (قصص سياسية) ١٩٤١
- ١٦ — من البرج العاجى (مقالات قصيرة) ١٩٤١
- ١٧ — تحت المصباح الأخضر (مقالات) ١٩٤٢
- ١٨ — بجماليون (مسرحة) ١٩٤٢
- ١٩ — سليمان الحكيم (مسرحة) ١٩٤٣
- ٢٠ — زهرة العمر (سيرة ذاتية — رسائل) ١٩٤٣
- ٢١ — الرباط المقدس (رواية) ١٩٤٤

- ٢٢ — شجرة الحكم (صور سياسية) ١٩٤٥
- ٢٣ — الملك أوديب (مسرحية) ١٩٤٩
- ٢٤ — مسرح المجتمع (٢١ مسرحية) ١٩٥٠
- ٢٥ — فن الأدب (مقالات) ١٩٥٢
- ٢٦ — عدالة وفن (قصص) ١٩٥٣
- ٢٧ — أرني الله (قصص فلسفية) ١٩٥٣
- ٢٨ — عصا الحكيم (خطرات حوارية) ١٩٥٤
- ٢٩ — تأملات في السياسة (فكر) ١٩٥٤
- ٣٠ — الأيدى الناعمة (مسرحية) ١٩٥٩
- ٣١ — التعادلية (فكر) ١٩٥٥
- ٣٢ — إيزيس (مسرحية) ١٩٥٥
- ٣٣ — الصفقة (مسرحية) ١٩٥٦
- ٣٤ — المسرح المتنوع (٢١ مسرحية) ١٩٥٦
- ٣٥ — لعبة الموت (مسرحية) ١٩٥٧
- ٣٦ — أشواك السلام (مسرحية) ١٩٥٧
- ٣٧ — رحلة إلى الغد (مسرحية تنبؤية) ١٩٥٧
- ٣٨ — السلطان الحائر (مسرحية) ١٩٦٠
- ٣٩ — يا طالع الشجرة (مسرحية) ١٩٦٢
- ٤٠ — الطعام لكل فم (مسرحية) ١٩٦٣
- ٤١ — رحلة الربيع والخريف (شعر) ١٩٦٤
- ٤٢ — سجن العمر (سيرة ذاتية) ١٩٦٤
- ٤٣ — شمس النهار (مسرحية) ١٩٦٥

- ٤٤ — مصير صرصار (مسرحية) ١٩٦٦
- ٤٥ — الورطة (مسرحية) ١٩٦٦
- ٤٦ — ليلة الزفاف (قصص قصيرة) ١٩٦٦
- ٤٧ — قالبنا المسرحي (دراسة) ١٩٦٧
- ٤٨ — بنك القلق (رواية مسرحية) ١٩٦٧
- ٤٩ — مجلس العدل (مسرحيات قصيرة) ١٩٧٢
- ٥٠ — رحلة بين عصرين (ذكريات) ١٩٧٢
- ٥١ — حديث مع الكوكب (حوار فلسفي) ١٩٧٤
- ٥٢ — الدنيا رواية هزلية (مسرحية) ١٩٧٤
- ٥٣ — عودة الوعي (ذكريات سياسية) ١٩٧٤
- ٥٤ — في طريق عودة الوعي (ذكريات سياسية) ١٩٧٥
- ٥٥ — الحمير (مسرحية) ١٩٧٥
- ٥٦ — ثورة الشباب (مقالات) ١٩٧٥
- ٥٧ — بين الفكر والفن (مقالات) ١٩٧٦
- ٥٨ — أدب الحياة (مقالات) ١٩٧٦
- ٥٩ — مختار تفسير القرطبي (مختار التفسير) ١٩٧٧
- ٦٠ — تحديات سنة ٢٠٠٠ (مقالات) ١٩٨٠
- ٦١ — ملامح داخلية (حوار مع المؤلف) ١٩٨٢
- ٦٢ — التعاادلة مع الإسلام والتعادلية (فكر فلسفي) ١٩٨٣
- ٦٣ — الأحاديث الأربعة (فكر ديني) ١٩٨٣
- ٦٤ — مصر بين عهدين (ذكريات) ١٩٨٣
- ٦٥ — شجرة الحكم السياسي (١٩١٩ — ١٩٧٩) ١٩٨٥

كتب للمؤلف نشرت في لغة أجنبية

شهر زاد : ترجم ونشر في باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج لكونت
عضو الأكاديمية الفرنسية في دار نشر (نوفيل أديسيون لاتين) وترجم إلى
الإنجليزية في دار النشر (بيلوت) بلندن ثم في دار النشر (كروان)
بنيويورك في عام ١٩٤٥ . وبأمريكا دار نشر (ثرى كنتنتز بريس)
واشنطن ١٩٨١ .

عودة الروح : ترجم ونشر بالروسية في ليننجراد عام ١٩٢٥
وبالفرنسية في باريس عام ١٩٣٧ في دار (فاسكيل) للنشر وبالإنجليزية
في واشنطن ١٩٨٤ .

يوميات نائب في الأرياف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩
(طبعة أولى) وفي عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية) وفي عام ١٩٧٤ و ١٩٧٨
(طبعة ثالثة ورابعة وخامسة بدار بلون بباريس) وترجم ونشر بالعبرية
عام ١٩٤٥ وترجم ونشر باللغة الإنجليزية في دار (هارفيل) للنشر بلندن
عام ١٩٤٧ — ترجمة أبا إيمان — ترجم إلى الأسبانية في مدريد عام ١٩٤٨
وترجم ونشر في السويد عام ١٩٥٥ ، وترجم ونشر بالألمانية عام ١٩٦١
وبالرومانية عام ١٩٦٢ وبالروسية عام ١٩٦١ .

أهل الكهف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخي
لجاستون فييت الأستاذ بالكوليج دي فرانس ثم ترجم إلى الإيطالية بروما
عام ١٩٤٥ وبميلانو عام ١٩٦٢ وبالأسبانية في مدريد عام ١٩٤٦ .
عصفور من الشرق : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٦ طبعة أولى ،

- ونشر طبعة ثانية في باريس عام ١٩٦٠ .
- عدالة وفن : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس بعنوان (مذكرات قضائي شاعر) عام ١٩٦١ .
- بجماليون : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- الملك أوديب : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ ، وبالإنجليزية في أمريكا بدار نشر (ثري كنتنتز بريس) بواشنطن ١٩٨١ .
- سليمان الحكيم : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ وبالإنجليزية في أمريكا بدار نشر (كنتنتز بريس) بواشنطن ١٩٨١ .
- نهر الجنون : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- عرف كيف يموت : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- المخرج : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- بيت الثمل : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- وبالإيطالية في روما عام ١٩٦٢ .
- الزمار : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- براكسا أو مشكلة الحكم : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- السياسة والسلام : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- وبالإنجليزية في أمريكا بدار نشر (ثري كنتنتز بريس) بواشنطن ١٩٨١ .
- شمس النهار : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثري كنتنتز) واشنطن عام ١٩٨١ .
- صلاة الملائكة : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثري كنتنتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

- الطعام لكل فم : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثرى كنتنتز)
واشنطن عام ١٩٨١ .
- الأيدي الناعمة : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثرى كنتنتز)
واشنطن عام ١٩٨١ .
- شاعر على القمر : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثرى كنتنتز)
واشنطن عام ١٩٨١ .
- الورطة : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثرى كنتنتز) واشنطن
عام ١٩٨١ .
- الشیطان فى خطر : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .
- بين يوم وليلة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠
وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٦٣ .
- العش الهادئ : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .
- أريد أن أقتل : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .
- الساحرة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٣ .
- دقت الساعة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .
- أنشودة الموت : ترجم ونشر بالإنجليزية فى لندن هاينان عام ١٩٧٣
وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٥٣ .
- لو عرف الشباب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .
- الكنز : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .
- رحلة إلى الغد : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ .
- وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتنتز بريس) بواشنطن عام
١٩٨١ .
- الموت والحب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ .
- السلطان الحائر : ترجم ونشر بالإنجليزية فى لندن هاينان عام ١٩٧٣ .

وبالإيطالية في روما عام ١٩٦٤ .

يا طالع الشجرة : ترجمة دنيس جونسون دافيز ونشر بالإنجليزية في لندن عام ١٩٦٦ في دار نشر أكسفورد يونيفرستى بريس (الترجمات الفرنسية عن دار نشر « نوفيل إيديسيون لاتين » بباريس) .
مصير صرصار : ترجمة دنيس جونسون دافيز عام ١٩٧٣ .
مع : كل شيء في مكانه .
السلطان الحائر .
نشيد الموت .

لنفس المترجم عن دار نشر هاينمان — لندن .
الشهيد : ترجمة داود بشاي (بالإنجليزية) جمع محمود المنزلاوى تحت عنوان « أدبنا اليوم » مطبوعات الجامعة الأمريكية بالقاهرة — ١٩٦٨ .
محمد ﷺ ترجمة د . إبراهيم الموجي ١٩٦٤ (بالإنجليزية) نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . طبعة ثانية مكتبة الآداب ١٩٨٣ .
المرأة التى غلبت الشيطان : ترجمة تويليت إلى الألمانية عام ١٩٧٦ ونشر روتن ولوننج بربلين .
عودة الوعي : ترجمة إنجليزية عام ١٩٧٩ لبيلي وندر ونشر دار ماكملان — لندن .

to: www.al-mostafa.com

to: www.al-mostafa.com

مقدمة ..

الأدب العربي القديم من أعرق الآداب وأبرعها في رسم الأشخاص وتصوير الطبائع . وما من عجب في ذلك ، فهذا الأدب وليد حضارة ذكية خلاقة . إنما العجب هو أن يبقى أكثر آثاره وكنوزه بعيدا عن متناول العالم الغربي الذي رشف من نبع الإغريق والرومان ..

أغلب الظن أن علة ذلك ترجع إلى اختلاف النظرة إلى الجمال الفني عند العرب والغرب . فالعرب يرون الفن الأعلى في الإيجاز ، أى التركيز ، في حين أن الغرب يرى الفن الأغنى في الإطناب أى التحليل .. وكان من أثر الإيجاز أن اكتفى العرب في رسم شخصية أو تصوير طبع بنادرة تروى أو حادثة تذكر أو بيت من الشعر ينظم ، فيجدون في ذلك متعتهم وبغيتهم .. بينما الغرب لا يكتفى باللمحة الخاطفة ولا تشبعه النادرة العابرة ، فهو يريد اللوحة الكاملة ذات الحوادث المتصلة .

والنظرتان إلى الفن صحيحتان . فلا إيجاز جماله وقوته .. وهو يفترض في المتذوق له ذكاء وفطنة وتصورا وعلمًا ، فيبصر الكثير من جلال القليل ، ويلمح الصورة التامة من وراء الجزء المقتضب .. فن يبدعه منشئ بارع .. لقارئ بارع يتباريان في ميدانه ، منتضيين أسلحة متكافئة من الذوق والفهم ..

كما أن للتحليل أيضا مزاياه .. فهو يفترض في المتذوق له خلو الذهن أو قصور الخيال .. فيرى من واجبه أن يعاونه ويكون في خدمته ، وأن يحتال بالإسهاب والتفصيل ليعلم من لا يعلم .. فيجذب من الناس عديدا ينشر فيهم دعوته ويبلغهم رسالته ..

لو استطعنا أن نوفق بين النظريتين ، ونجمع بين الفنين .. لكانت النتيجة أتم والفائدة أعم ..

وهذا ما أخذت به نفسى حين وضعت هذا الكتاب فى عام ١٩٣٨ فى ذلك الإطار الذى يظهرنا على صورة من المجتمع العربى فى ذلك العصر ، نكاد نلمس لها وشائج قري بما نراه اليوم فى بعض أحياء مدننا وعادات مجتمعا ..

فالمالك والمستأجر وما بينهما من علاقة .. والمنازل ومرافقها ، والسوق وحركتها ، والولائم ومراسمها ، والحمام وزبائنه ، والحلاق وطباعه .. كل تلك الصور عن الحياة الاجتماعية كما بدت من الأدب العربى القديم ، قد راقنتى فيما راقنى من طبائع وأشخاص رأيت أن أبرزها إلى جانب شخصية « أشعب » .. ذلك الراصد للموائد والطعوم كما يرصد الفلكى الكواكب والنجوم .. وأشهد أنى ما رأيت قط فى أدب من الآداب صورة لطيفلى أدق من صورته .. فتتبع آثاره وتنسجت أخباره ، وطفقت أجمع نوادره من كتب الأقدمين .. وأمزجها وأخلطها وأطبخها .. على حد تعبيرى فى بيان الطبعة الأولى .. إذ قلت يومئذ : « ما دمنا فى صدد المعدة » — أعنى معدة أشعب — فلائين

للناس كيف طبخت لهم هذا اللون من ألوان الأدب . لقد استحضرت اللحم والبقل والتوابل والأبازير من حوانيت أربعة مشاهير : « الجاحظ » و « ابن عبد ربه » و « الخطيب البغدادي » و « بديع الزمان » . فقد بهرني حقا وأسأل لعالي ما وجدته لديهم من اللذائذ والطرائف . غير أني وجدت كل هذا مبعثرا ضمن بضاعتهم ، وملقى على غير نظام ، حتى وقع الملح على السكر . كما وجدت أكثر هذه الأشياء شائعة مكررة بنصها وتفصيلها عند الأربعة ، كل يضعها من حانوته نفس الوضع ، ويعرضها عين العرض . فملأت يدي مما تخيرت من أطايبها وذهبت به إلى « مطبخ » فنى ، حيث مزجته وخلطته وجعلت منه « عجينة » واحدة ، صنعت منها هذه القصة المتصلة

الفصول ...

توفيق الحكيم

أشعب وجاريتة رشا ..

انتصف النهار ، وصاح مؤذن الظهر ، لا من مسجد ذلك الحى من
أحياء « المدينة » ، لكن من بطن « أشعب » : أشهر الطفيليين فى
عصره ، وأظرفهم حديثا ، وأقبحهم وجها ، وأزراهم هيئة ، وأجملهم
صوتا وأحذقهم فى فنون الغناء
وكان جالسا إلى معشوقته « رشا » من أول النهار ، يحادثها
ويضاحكها ويطارحها الغناء منشدا :

دموع عينى لها انبساط ونوم عينى به انقباض
وكانت الحسناء متكئة على فراش من ديباج أخضر ، فى دارها
الصغيرة ، أمام بستان قد أزهى بنبت الربيع . فأجابته مترنمة ، والسحر
والفتنة يكادان ينطقان فى عينيها :

هذا قليل لمن دهنه بلحظها الأعين المراض
فتنه العاشق ورفع عقيرته :
فهل لمولاتى عطف قلب أو للذى فى الحشا انقراض ؟
فأجابته الجميلة فى ابتسامها الفاتن ، ولفظها العذب وصوتها
الرخيم :

إن كنت تبغى الوداد منا فالود فى ديننا قراض
فتنه أشعب هذه المرة تنهدا طويلا ، وأرسل بصره إلى النافذة ، .

ورأى ميل الشمس ، فتململ والتفت يمنة ويسرة ، إلى الحسناء صاحبة الدار :

— ما لي لا أسمع للطعام ذكرا ؟!

فتغير وجه الجميلة وقالت :

— سبحان الله ! أما تستحي يا شيخ ؟ أما في وجهي من الحسن

ما يشغلك عن هذا ؟!

فسكت أشعب كالخجل . ثم جعل ينظر إلى وجهها وعينيها متمسكا بأهداب الصبر والقناعة .

فقالت له :

— امض في غنائك ، فإنك حسن الغناء . أسمعني صوتا لم أسمعه من

قبل . ما هو أحسن الغناء عندك ؟

فأجاب أشعب بغير تردد :

— هو نشيش المقل !

فقالت له في شيء من الامتعاض والتأنيب :

— أهذا كلام يقال في مثل هذا الموقف الذي نحن فيه ؟

— صدقت .. لقد كان يجمل بي أن أتحدث عن الحب الذي في

الحشا !

وأمسك بالعود مرة أخرى ..

فأسرعت الجارية تقول :

— نعم ، صف لي ما في الحشا من الحب .

فنظر إليها العاشق مليا وقال :

— وماذا كنت أصنع إذن منذ الصباح ؟

— زد فى الوصف .

— وصف ماذا ؟ ..

— ما فى الحشا من الهوى .

— من « الهوا » .. هذا والله صحيح .

ورفع العاشق عقيرته بالغناء :

إذا كان فى بطنى طعام ذكررتها

وإن جعلت يوما لم تكن لى على ذكر

ويزداد حبى إن شبعتم تجددا

وإن جعلت غابت عن قوادى وعن فكرى

* * *

ولم تر الجارية مع صاحبها هذا حيلة ، فقامت تهيب له الطعام .
ولم تمض ساعة حتى فاز أشعب ببغيته الحقيقية ووضع أمامه الخوان .
وكان هذا العاشق الولهان إذا أكل ذهب عقله وجحظت عينه وسكر
وسدر وانهر ، وتريد وجهه ، ولم يسمع ولم يبصر . فتناول القصعة
وهى كجمجمة الثور فأخذ يحضنها ، وما زال ينهشها طولا وعرضا
ورفعا وخفضا ، لا يفصل ثمرة قط عن ثمرة ولا يرمى بنواة قط ولا ينزع
قمعا ولا ينقى عنه قشرا ولا يفتشه مخافة السوس والدود . فلما رأت
صاحبته ما يعتريه وما يعترى الطعام منه ، لم تزد على أن همست كالمخاطبة
لنفسها :

— هذا والله هو العشق !

ثم نظرت إليه ، وقد انتقل إلى ألوان أخرى من الطعام جعل يخاطبها
قبل أن يمد إليها يده :

— بارك الله فيك من « فالودج » صاف يقرأ نقش الدرهم من
تحتك ! بارك الله فيك من ثريدة ملساء كأنها خد الحبيب ! بارك الله فيك
من خبز رقاق كأنها آذان الفيلة !
وهجم بيديه كأنه طالب ثأر ، فابتدرته الجارية قائلة :
— أتعبنى ؟

فلم يجب ، ولم يلتفت إليها ، ولم يبد عليه أنه سمع منها شيئاً . ومضى
في التهامه ومضغه . فتوسلت إليه أن يتكلم فصاح متبرما :
— أما سمعت قول من قال : « إذا كنت على مائدة فلا تتكلمن في
حال أكلك ، وإن كلمك من لا بد من جوابه فلا تجيبه إلا بقول نعم ،
فإن الكلام يشغل عن الأكل ، وقول « نعم » مضغة ..
فضحكت القينة . ثم قالت :
— ولكنك لم تجبني حتى بقول « نعم » .
فنظر إليها وفمه ممتلئ نظرة من يسألها عما قالت ، فقد نسي ،
فأجابت :

— سألتك « أتعبنى » ؟

فلم يلفظ حرفاً ، وأين له الفم الذى يلفظ شيئاً ؟
فسكتت الجارية لحظة ، ثم رأت أن تحتال عليه وتخرجه فقالت :
— أتعب أبا بكر الصديق ؟

فبلع لقمة وشرب جرعة من ماء ، ونظر إليها نظرة المعتذر المشغول
(أشعب)

عن الجواب ، غير أنها مضت في تضيق الخناق عليه :

— أتحب عمر بن الخطاب ؟

وصادف العاشق فترة فراغ بين لقمة ولقمة ، فأجابها على عجل ويده
مسرعة إلى الخوان :

— ما ترك الطعام في قلبي حبا لأحد !

* * *

قام أشعب عن الخوان الذي كان ، وهو يتجشأ ويقول لصاحبه :
— جعلت فداك ما أكرمك ! إذا كان غدا فاصنعى لى هريسة ، فأنت
أحذق بها .

فقالت له باسمه :

— إنك لشديد النسيان . أما تذكر أنك من أيام قد تشهيت على
« هريسة » فبعثت بها إليك ؟

فصاح العاشق طربا :

— نعم .. فأني أتشهى عليك إذن « لوزينج » رق قشره واشتدت
عذوبته ، غريقا في سكر ودهن لوز .. يشد فؤاد الحزين ويرد نفس
الشجين : ابعثى لى به غدا أصلحك الله ، مع شيء من النبيذ
وما يصلحه .

فقالت :

— أنسيت أنى بعثت إليك منذ ليال هذا اللوزينج وهذا النبيذ !

فقال :

— إذن فأني أشتهى ، حفظك الله وأبقاك ، ثريدة دكناء من الفلفل ،

رقطاع من الحمص ، ذات جناحين من اللحم فأضرب فيها كما يضرب
الولى السوء فى مال اليتيم .

فصمت الجارية لحظة ، ثم نظرت إلى أشعب مليا وقالت كالمخاطبة
لنفسها ، ساخرة :

— أبقاك الله وحفظك ، رأينا الحب يكون فى القلب ، وحبك ليس

يجاوز المعدة !

— لم أسمع منك ! ماذا قلت ؟

— لا شيء ! أخبرنى أنت .. أين دارك ولماذا لم تدعنى يوما إلى

طعامك ؟

فنظر إليها أشعب نظرة الجزع والذعر :

— دارى ؟ أما علمت أنى أسكن عند الكندى !

— ومن الكندى ؟

— هو أبخل أهل الأرض طراً ، وهل يستطيع ساكن أو جار أن يصنع
طعاماً دون أن يبعث إلى صاحب الدار بطبق . إنه لا يزال يقول للساكن
وربما للجار : « إن فى الدار امرأة حبلى ، وإن الوحى ربما أسقطت من
ريح القدور الطيبة ، فإذا طبختم فردوا شهوتها ولو بغرفة أو لعقة . فإن
لم تفعلوا ذلك بعد إعلامى إياكم فكفارتكم إن أسقطت غرة عبد أو
أمة » ، فكان بذلك ربما يوافق منزله من قصاع السكان والجيران ما
يكفيه الأيام . فياكل هو وعياله ويقول لهم : « أنتم أحسن حالاً من
أرباب هذه القصاع . فلكل بيت منهم لون واحد وعندكم ألوان » ، فهل
تريدون أصلحك الله ، أن أدعوك إلى دار مثل هذا الرجل ؟

فضحكت وقالت :

— أفقر هو ؟

— إنه أغنى أهل المدينة !

— ولكنى أريد أن أموت و آكل من طعامك !

فتفكر العاشق قليلا ثم أجاب :

— مهلا سيدتى .. سأدعوك إن شاء الله إلى طعام و شراب و غناء ..

— متى ؟

— يوم يحين وقت ذلك .

ثم أسرع فاستوى قائما و مد إليها يده مودعا ، فمدت إليه يدا صغيرة كأنها حلية من عاج ، فلمح فى إصبعها خاتما ، فاستبقى يدها فى يده و قال فى صوت يسيل رقة و لطفًا :

— سيدتى جعلت فداك ! ناولينى هذا الخاتم الذى فى إصبعك لأذكرك به .

فسحبت يدها فى رفق و تضاحكت فى خبث و قالت :

— إنه ذهب و أخاف أن تذهب .

ثم أسرع فالتقطت من الأرض عودا يابسا سقط عن شجرة قرب النافذة و أعطته إياه قائلة :

— ولكن خذ هذا العود لعلك تعود !

أشعب والكندى البخيل ..

جاء العصر وأشعب يتسكع فى الأسواق إلى أن انتهى به المطاف أمام
بستان من بساتين الكندى . فوقف وأرسل بصره ، فوجد صاحبه
جالسا تحت شجرة على ماء جار وسط خضرة ، وقد بسط بين يديه
مندىلاً فيه لحم سكباج بارد وقطع جبن وزيتونات وصرة فيها ملح
وأخرى فيها أربع بيضات . فاقترب منه ومر به مسلماً عليه . فرد
الكندى السلام قائلاً :

— هلم عافاك الله .

وإذا أشعب أسرع من خطف البرق فى صحن السماء قد اثنى راجعاً
يريد أن يعدى جدول الماء . فصاح به الكندى وهو يأكل :

— مكانك .. فإن العجلة من عمل الشيطان ..

فوقف أشعب مأخوذاً .. فسأله الكندى :

— تريد ماذا ؟

فأجاب أشعب :

— أتريد أن أتعدى ..؟!

فحملق فيه الكندى قائلاً :

— ولم ذلك ؟ وكيف طمعت فى هذا ؟ ومن أباح لك مالى ؟

فقال أشعب :

— أولست قد دعوتنى ؟

فأجاب الكندى :

— ويلك ! لو ظننت أنك هكذا أحق ما رددت عليك السلام . ماذا كان بيننا غير سلام ورد سلام ، أى كلام بكلام ، ولكنك تريد أن يكون كلام بفعال . وقول بأكل ، فهذا ليس من الإنصاف .
وازدرد الرجل بيضة مما بين يديه . وجعل أشعب ينظر إليه لحظة ثم قال له :

— لقد رأيتك تأكل وحدك .

فبلغ الكندى ريقه ثم قال :

— ليس علىّ فى هذا الموضوع مسألة . إنما المسألة على من أكل مع الجماعة ، لأن ذلك هو التكلف . وأكلى وحدى هو الأصل . وأكلى مع غيرى زيادة فى الأصل . وإذا كانت الوحدة خيرا من جليس السوء . فإن جليس السوء خير من أكل السوء . لأن كل أكل جليس . وليس كل جليس أكل !

فقال أشعب متخابثا :

— إنما أردت أن أؤاكلك لأسخيك وأنفى عنك اسم البخل ..

فأجاب الكندى وهو يلقي فى حلقه زيتونة :

— لا أعدمنى الله هذا الاسم .. فإنه لا يقال فلان بخيل إلا وهو ذو مال ، فسلم إلى المال وادعنى بأى اسم شئت .
فقال أشعب :

— ولا يقال أيضا فلان سخى إلا وهو ذو مال . فقد جمع هذا الاسم

الحمد والمال ، أما اسم البخل فقد جمع المال والذم . فأنت قد اخترت
أخسهما وأوضعهما

فقال الكندى :

— بينهما فرق ..

فقال أشعب :

— ما هو ؟ ..

فأجاب الكندى :

— فى قولهم بخيل تشببت لإقامة المال فى ملكه . وفى قولهم سخي إخبار
عن خروج المال من ملكه . فالبخل اسم فيه ذم ولكن فيه حفظاً ،
والسخاء اسم فيه حمد ولكن فيه تضييعاً . والمال حقيقة ومنفعة وحيازته
قوة ، أما الحمد فهو ربح وسخرية والاستماع له ضعف ! وماذا ينفع
الحمد إذا جاع البطن وعمرى الجلد وضاع العيال وشممت الحساد ؟
وظل يأكل ، وأشعب ينظر إليه ، حانقا فى دخيلة نفسه على هذا
اللؤم ، الذى لا تنفع فيه حيلة . غير أنه تلىطف له ودنا منه قائلاً :
— وما عليك لو جلست إليك ساعة أغنيك حتى تطرب وأضحكك
حتى يزول عنك هذا القطوب .

فصاح الكندى :

— لا أريد أن أطرب الساعة ولا أن أضحك .

— وماذا يمنعك من ذلك ؟

— يمنعنى منه أن الإنسان أقرب ما يكون من البذل والعطاء إذا طرب
وضحك .

فأسقط في يد أشعب ولم يدر من أى مدخل يدخل إلى هذا الرجل ،
وهو كلما فتح له باباً أغلقه . ولم يقنط أشعب من ذلك . وخطر له خاطر
أعجبه . فأسرع يقول لصاحبه :

— لقد ظفرت لك بساكن جديد ، رضى أن ينزل دارك الخالية وقبل
دفع الأجر وقضاء الحوائج والوفاء بالشرط ...

فأبرقت أسرة الرجل ووضع اللقمة من يده وقال :

— وأين هو .. عافاك الله ؟

— إذا رأيت أن أدعوه ...

— متى ؟

— الليلة إلى عشائك .

— عشائى !

وعاد إلى قطوبه ، فأراد أشعب أن يهون عليه الخطب فقال له :
— لا تتكلف شيئاً لهذا الضيف ، إنه يرضى بما حضر فأسرع الكندى

يقول :

— ليس يحضر شيء ، وقولك « بما حضر » معناه أنه لا بد من أن يقع

على شيء .

فقال أشعب :

— قطعة مالح ...

— وقطعة مالح أليست هى شيئاً ؟

— نكتفى بالشرب إذن على الريق .

— لو كان عندنا نبيذ كنا فى عرس .

— أنا أحضر النبيذ .

فقال الكندي على الفور :

— إذا صرت إلى إحضار النبيذ فأحضر أيضاً ما يصلح للنبيذ ..
فقال أشعب :

— ليس يمنعني والله من ذلك ومن إحضار النقل والريحان إلا أن
أحسب أنا صاحب الدعوة وليس يجوز ذلك ، إلا أن يكون لك فيها أثر .
ففكر الكندي لحظة ، ثم صاح كمن وجد الفرج :

— لقد انفتح لي باب : لكم فيه صلاح وليس عليّ فيه فساد .
والتفت إلى نخلة عالية ملساء كأنها ثعبان قائمة في طرف من أطراف
البستان وقال :

— في هذه النخلة زوج يمام ولهما فرخان مدركان ، وإن نحن وجدنا
إنساناً يصعدّها ، ولم يطيرا ، فهما قد صارا ناهضين ، جعلنا الواحد
« طباهجة » والآخر « كردجا » فكان نعم العشاء ، فهل لك يا أشعب
في صعود هذه النخلة ؟

فنظر أشعب إلى النخلة وقد كاد رأسها يمس السحاب ، وصاح :
— هذه لا تصعد ولا يرتقى عليها إلا إذا كان اليوم عمري ، وأردت
من ذلك دك عنقي ، اللهم أغتنى عنك وعن طعامك يا شيخ !

* * *

وأراد أن ينصرف يائسا ، ولكنه فكر في أمر عشائه وليس في المدينة
الليلة وليمة ولا عرس ينسل إليه ، فعاد إلى النخلة ، فرأى مرة أخرى أن
علوها الشاهق يملاً النفس رعبا ، وأدرك أن صعودها لا يقدم عليه إلا من

طلب الموت ، فأخبر الكندى أن يعفيه وأن يطلب في الجيران إنساناً يصعدها ، فسألوا الجيران فلم يقبل أحد أن يفعل ذلك ، ودلهم بعض الناس آخر الأمر على أكار تلك حرفته ، فما زال الرسول يطلبه حتى وقع عليه ، فلما جاء ونظر إلى النخلة تردد هو أيضاً ، فما زالوا به يشجعونه ويغرونه حتى استخار الله وارتقى النخلة ، فلما صار في أعلاها طار أحد الفرخين ، فأنزل الآخر وسلمه إلى الكندى ، ووقف يتصبب عرقاً في انتظار الأجر ، فأخرج الكندى « فلسا » وضعه في يد الأكار فنظر إليه ملياً ثم أراه للحاضرين من الجيران والمشاهدين ، فقالوا جميعاً :
— فلسا بعد هذا الجهد كله ، وهو غنى !.. لو كان أعطى درهماً على الأقل ، إنه ذو مال !

فالتفت إليهم الكندى صائحاً :
— إننى لم أجمع هذا المال بعقولكم فأفرقه بعقولكم !
وأشاح بوجهه عنهم والتفت إلى أشعب قائلاً :
— الآن قد ظفرنا بالعشاء ، فابعث لنا في طلب صاحبك الساكن الجديد .

فنظر أشعب إليه شذراً :
— فرخ يمام واحد ، هو « الطباهج » و « الكردناج » وهو كل العشاء ؟!

ففكر الكندى لحظة ثم قال :
— انتظر ، لا تبرح .
وأشار إلى الأكار الواقف يتميز غيظاً ، فترضاه وأغراه وذهب به ،

وغيرا مليا ، ثم عادا يحملان أرزاً بقشره ، وليس معهما شيء مما خلق الله إلا ذلك الأرز . فلما صار الكندى إلى بستانه كلف الأكار أن يجشه في مجشة له ، ثم ذراه ، ثم غربله ، ثم جش الواش منه . إلى أن فرغ الأكار من ذلك كله فكلفه الكندى أن يطحنه على ثوره وفي رحاه ، حتى فرغ من طحنه . فكلفه أن يغلي له الماء وأن يحتطب له وأن يعجنه بالماء الحار لأنه به أكثر نزلاً ، ثم كلف الأكار أن يخبزه . ثم طلب إلى أشعب وبعض الحاضرين من صبية الجيران أن ينصبوا له في الجدول الشصوص وأن يسكروا الدراجة على صغار السمك لا تدخل السولقى ، وأن يدخلوا أيديهم في حجرة الشلابى ، حتى يصيبوا من السمك شيئاً يجعل كباباً على نار الخبز تحت الطابق فلا يحتاج من الحطب إلى كثير . ما زال أشعب منذ ذلك العصر إلى الليل في كد وجوع وانتظار إلى أن أذن الله بالفرج وفرغ من أداء نصيبه من العمل ، وجاء الخبر من بيت الكندى أن اليمامة التى كان قد بعث بها لتطبخ « طباهجا » قد نضجت ، فصاح الكندى في صبيحة الظافر :

— يا أشعب ! هلموا إلى عشائى ، وهنيئاً مريئاً لكم طعامى .
فأحضر صاحبك إلى دارى تجدوا الخوان قد نصب كأنه إيوان كسرى
وعرش هرقل !

* * *

جربى أشعب إلى صديق له من طرازه يدعى « بنان » فقص عليه الأمر وتوسل إليه أن يأتى معه إلى دار الكندى فيظهر له أنه الساكن المنتظر حتى ييراً أشعب من وعده .. فإذا انتهى العشاء ، وعان الصديق الدار

— ٢٨ —

كان له أن يتعلل ويتمنع ويبدى الرفض ويطلب الفسخ ، ولم يكن عند « بنان » في تلك الليلة ما يعتق به هو أيضاً . فما علم أن العشاء مضمون حتى خرج من داره الخالية لوقته مع أشعب .. وسارا في الطريق فأوصاه أشعب أن يفهم الكندى أول الأمر أنه قابل الكراء وقضاء الحوائج والوفاء بالشرط .

فالتفت « بنان » إلى صاحبه قائلاً :

— قد فهمت دفع الكراء وقضاء الحوائج فما معنى الوفاء بالشرط ؟
فأجاب أشعب :

— في شرطه على السكان أن يكون له روث الدابة ، وبعر الشاة ، ونشوار العلوفة ، وأن لا يخرجوا عظما ولا يخرجوا كساحة ، وأن يكون له نوى التمر وقشور الرمان ، وغرفة من كل طبخة لمن يزعم أنها حبل في بيته .

* * *

أقبل الضيفان على دار الكندى فألفياه قد أعد الخوان وجلس في انتظارهما يتلمظ ويقول :

ومن البليسة في الموائد أن يرى

قوم جيعا في انتظار القادم

فقعد أشعب على الفور أمام الطعام وأجلس زميله جواره وهو يقول :

سواء علينا أقدموا أم تأخروا

نوافي مع الطباخ ساعة يغرف

وأشار إلى صاحبه « بنان » بعد أن غمره بكوعه :

— لقد انتظرت صاحبي هذا انتظار الآكل للشبع ! فقال الكندى .

— انتظرته إذن قليلاً ؟

فأجاب بنان على الفور :

— نعم ، لقد انتظرتني مقدار ما يأكل إنسان رغيفاً !

وتناول الخبز . فقال الكندى : لقد انتظرك إذن طويلاً .

ولم يلتفت الضيفان إلى صاحب الدار ولم يجيباه بعد ذلك . وأشعب وبنان إذا تقابلا على خوان لم يكن لأحد منهما حظ في الطيبات ، فما جاءت القصعة فيها الثريدة كهيئة الصومعة مكلفة بتلك اليمامة المعهودة ، حتى أخذ أشعب الذى يستقبله ثم أخذ ما عن يمينه وأخذ ما بين يدي صاحب الدار ثم مال على جانبه الأيسر فصنع مثل ذلك ، وعارضه زميله بنان وحاكاه .

فلما أن نظر الكندى إلى الثريدة مكشوفة القاع مسلوحة عارية ، والفرخ كله بين يدي أشعب وزميله إلا قطعة جناح صغيرة بين يديه ، تناولها فوضعها أمام الضيف الجديد واحتسب بها في سبيل الكرامة والبر والضيافة ، وهو يتميز ويقول ليخفى غيظه العظيم :

— قال الحكماء : « عليكم بشرب الماء على الغداء » فلو شرب الناس الماء على الطعام ما أتخموا . وذلك أن الرجل لا يعرف مقدار ما أكل حتى ينال من الماء ، وربما كان شبعان وهو لا يدري ..
فقال بنان :

— شبعان ! والله نحن إنما نسمع بالشبع سماعاً من أفواه الناس ! ثم مد يده إلى الخبز . فغمزه أشعب هامساً :

— تمهل وتحشم ، حتى لا يفطن إلينا ويفر منا .. أنت لا تعرفه ، لأن
يطعن طاعن في الإسلام أهون عليه من أن يطعن في الرغبة الثاني !
فسحب بنان يده ، وهو يهمس في أذن أشعب :

— أويريد أن يكون بين الرغبة والرغبة فترة نبى ؟
ولحظهما الكندى وظن أنهما يتساران في أمر الخبز ويستصغران
حجمه .. فأمسك برغبة ورطله في يده وقال :

— يقولون إن خبزي صغير ! فمن الزانى ابن الزانية الذى يستطيع
أكل رغبين منه !

فبهت بنان ، وأراد أن يفتح فاه ، وإذا بالبواب قد فتح عليهم ودخل
جار للكندى ، قرأ الجميع السلام وهم يأكلون فردوا عليه ، ولم يعرض
الكندى عليه الطعام ، فاستحيا أشعب من الرجل وهو جاره في
السكن ، فما تمالك أن قال له :

— سبحان الله ! لو دنوت فأصبت معنا مما نأكل فتأدب الرجل وقال
حياء :

— قد والله فعلت .

فأسرع الكندى يقول :

— ما بعد القسم بالله شىء .

فكتف الرجل بذلك كتفاً لا يستطيع معه قبضاً ولا بسطاً ، وتركه
في مكانه لا يريم . ولو مد الرجل يده بعد ذلك وأكل لشهد عليه
بالكفر . ورأى الرجل دقة موقفه فتحرك منصرفاً خجلاً . فرق له
أشعب وقال له :

— أين تريد ؟

فقال الرجل :

— إلى منزلي أتوضأ .

فقال له أشعب :

— ولماذا لا تتوضأ ها هنا ؟ فإن الكنيف خال نظيف ، والغلام فارغ

نشيط ، وليس من الكندي حشمة ، ومنزله منزل إخوانه .

فدخل الرجل فتوضأ . والكندي ينفخ من الغيظ .

ولحظه أشعب فقال له :

— هون عليك . إنما كل بغيتي أن أسخيك وأنفي عنك التبخيل

وسوء الظن .

فقال الكندي :

— فهمنا أن تدعو الناس إلى غداي لتسخيني ، ولكن لا أفهم أن

تدعوهم ليخروا عندي .

وعاد الرجل فجلس عن كئيب وأخرج من جيبه رقعة قدمها إلى

الكندي قائلاً :

— جاءتنى رقعتك اليوم وفيها أنك تزيد عليّ أجر الدار خمستين ،

لأن ابن عمي ومعه ابن له قد نزلا عليّ ضيفين !

فأجاب الكندي على الفور :

— نعم ، إذا كان مقام هذين القادمين ليلة أو ليلتين احتملنا ذلك ،

وإن كان إطماع السكان في الليلة الواحدة يجر علينا الطمع في ليال

كثيرة .

فقال الرجل :

— ليس مقامهما عندنا إلا شهراً أو نحوه .

فقال الكندي :

— إن دارك بثلاثين درهم وأنتم ستة ، أى لكل رأس خمسة ،
فأما وقد زدتم رأسين فلا بد من زيادة خمستين . فالدار عليك من يومك
هذا بأربعين .

فقال الساكن متعجباً :

— وما يضرك من مقامهما وثقل أبدانهما على أنا دونك . ما هو إذن
عذرك لأعرفه ؟

فترك الكندي الأكل واتجه إلى ساكنه قائلاً :

— عذرى واضح كالنهار . والخصال التي تدعو إلى ذلك كثيرة .
وهي قائمة معروفة : من ذلك سرعة امتلاء البالوعة وما في تنقيتها من
شدة المؤونة . ومن ذلك أن الأقدام إذا كثرت ، كثر المشى على ظهور
السطوح ، والصعود على الدرج ، فينقشر الجص وينكسر العتب ، وإذا
كثر الدخول والخروج والفتح والإغلاق وجذب الأقفال ، تهشمت
الأبواب وتقلعت الرزات . فساكن الدار هو المتمتع بها والمنافع بمراقبتها
وهو الذى يبلى جدتها ويذهب عمرها بسوء تدبيره ، وأنه ينسى أن المالك
ما أسكن داره إلا بعد أن كسحها ونظفها لتجسن في عين المستأجر ،
فإذا خرج هو ترك فيها مزبلة وخراباً لا تصلحه إلا النفقة الموجهة ، ثم
لا يدع بعد ذلك مترساً إلا سرقة ، ولا سلماً إلا حمله ، وإذا أراد الدق في
الهون ترك الصخرة المجعلولة لذلك ودق على الأجذاع حيث جلس تهاوناً

وقسرة وغشاً . هذا فضلاً عما يحدثه من الشغب مع الجيران والتعرض لهم واصطياد طيورهم وتعريضنا لشكايتهم . فإذا أردنا أن نجعل الغرم بالغنم ، وأن نطلب بغيره دراهم لإصلاح الفساد المنتظر سمعنا عبارات الاحتجاج وطولبنا بإبداء الأعذار والأسباب !

وسكت الكندى فجأة ، فقد سمعت منه التفاتة إلى الضيفين ، فوجدتها قد انتحزا فرصة اشتغاله بالكلام وأمعنا هما في نحو أثر الخبز والسمك ، إلا « شبوطه » كان قد نجح في وضعها بين يديه ، وكان قد أكبر أمرها لسمنها وكبرها ولشدة شهوته لها ، وكان قد ظن عند نفسه أنه قد خلاها وتفرّد بأطايها ، فما كاد يحسر عن ذراعيه ويصمها لها حتى صجمت يد أشعب عليها ، فلما رأى هذه اليد في السمكة رأى الموت الأتوم والطاعون الجارف وأيقن بالشر وعلم أنه قد ابتلى ، ولم يلبث أشعب حتى قبض على قفا الشبوطه فانتزع الجانبين جميعاً واكتسح ما على الوجهين . فلما أكل أشعب جميع أطايها وبقي الكندى في النظارة ، ولم يبق في يده مما كان يأمله في تلك السمكة إلا الغيظ الشديد ، بينما هو يرى أشعب يفرى الفرى ويلتهم التهاما صاح به :

— حسبك حتى لا يقتلك الطعام !

فأجاب أشعب وفمه متلخخ :

— إذا كان الأجل موقوناً ، فلأن أموت شبعاً أحب إليّ من أن أموت

جوعاً !

وقطع الكندى من الأكل مع هذين الرجلين ، فانصرف إلى الحديث مع جاره الساكن واتفق معه على الزيادة في الكراء كما طلب ، وشيعه إلى

(أشعب)

الباب ثم عاد إلى الضيفين فوجدهما قد قاما عن المائدة ولم يبق عليها شيء يؤكل . وبنان يتعجشاً ويقول :

— لعن الله « القدرية » .. من كان يستطيع أن يصرفنى عن أكل هذا الطعام ، وقد كان فى اللوح المحفوظ أنى سأكله !
فكظم الكندى غيظه وقال فى نفسه :

— تعال غداً فإن وجدت شيئاً فالعن « القدرية » والعن آباءهم وأمهاتهم !

وجلس الضيفان بعد أن غسلأ أيديهما يتخللان من الطعام ، وهما على خير ما يكون الإنسان راحة وهناء . وجعل الكندى ينظر إلى خوانه منتهك الحرمة ، عليه بقايا العظام والأشواك كأنها جثث القتلى بعد المعركة ، فساورته الهموم وتحركت فيه غريزة البخل ، وشعر بالكرب والغم . فما تمالك نفسه ، وأقبل عليهما يقول فى نبرة المتوسل :

— أسألكما بالله الذى لا شيء أعظم منه ، أنا الساعة أيسر وأغنى ، أو قبل أن تأكلوا طعامى ؟
فقالا معاً :

— ما نشك أنك حين كنت والطعام فى ملكك كنت أغنى وأيسر .
قال :

— فأنا الساعة أقرب إلى الفقر أم تلك الساعة ؟
قالا :

— بل أنت الساعة أقرب إلى الفقر .
فلم يحتمل الكارثة ، وصاح فى نبرة ألم وندم وغضب :

— آه ! من ذا الذى يلومنى إذن على ترك دعوة قوم قربونى من الفقر
وباعدونى من الغنى ، وكلما دعوتهم أكثر كنت من الفقر أقرب ؟!
فرأى أشعب الخطر والضرر كله فى ترك هذا الرجل على هذه العقيدة
فأسرع يقول له :

— ولكن قد فاتك أمر : إنك الليلة إنما تنفق اليسير لتجنى الكثير .
ما هذا الطعام القليل النفقة الخفيف المؤونة إلى جانب ما سوف تتقاضاه
من هذا الساكن الجديد كراء لدارك الخالية ؟ أما كنت تقول الساعة أن
الغرم بالغنم ؟!... فأنت والله فى آخر الأمر الغانم الرابع !
فتفكر الكندى لحظة وبدا عليه الاقتناع ، فاطمأن فى الحال قلبه
وانفرجت أساريره وضحك للمرة الأولى ضحكة الارتياح .. وقال :
— إذن فادع لى !

فرفع أشعب يديه إلى السماء وقال :
— من الله عليك بصحة الجسم وبسطة اليد وسعة الصدر وكثرة
الأكل ونقاء المعدة ، وأمتعك بضرر طحون ومعدة هضوم ، مع السعة
والدعة والأمن والعافية !.. هذه دعوة مغفول عنها !
جعل أشعب وبنان يدلان الكندى ويفكهانه ولم يشكا أنه سيدعو
إليهما تلك الليلة بنيذ فيملآن بيته إلى الفجر نزهة ونشوة ، ولكن
الكندى جعل يتغافل ويتناوم . فلمح له أشعب بما يصبو إليه قائلاً :
— إن المجلس والله .. ليس فيه غناء ولا نبىذ فهو كالبیت الخرب !
فلم يسمع لكلامه صدى . وطال تغافل الكندى فلم يجد أشعب بدا
من التصريح . فأقبل عليه يقول :

— اجعلها مرة ليس لها أخت .. ودعوة لن تعود إلى مثلها .. واضحك
واطرب ليلة في العمر بقليل من نبيذ !
ولما بلغ منه ومنهما المجهود ورأى الكندي أنهما مقيمان مصران ، غير
منصرفين قبل أن يظفرا منه بما طمعا فيه ، قام فأحضر لهما قربة نبيذ مع
أكواب ووضعهما بين يدي أشعب وقال له :
— الآن غن واطربني والآن الله !

فانقض أشعب وبنان على الكؤوس . وشرب بنان شرب العطشان
الصادى . وأفرغ أشعب كأسه في جوفه وهو يرفع عقيرته منشداً :
امدح الكأس وممن أبدعها

واهج قوماً قتلونا باله — عطش

إنما الكأس ربيع باكر

فاذا ما لم نذقها لم نعيش

فطرب الكندي للصوت ولكنه قال كالخناطب نفسه :

— والله ما قتلوكم بالعطش . ولكنكم أنتم قتلتم أنفسكم بالشهره .

وملاً كأسه وقال : غن أيها المغنى !

فملاً أشعب، كأسه وصاح بصوته الجميل :

لا تحفلن بقول اللائيم اللاحي

واشرب على الورد من مشمولة الراح

كأسنا إذا انحدرت في حلق شاربها

أغذاك لألاؤها عن كل مصباح

فصاح الكندي من الطرب صيحة مدوية دهت الضيفين . وأفرغ في

حلقة كأسا أخرى وهو يقول :
اسقنى حتى ترانى مائلاً
وتسرى عمران دينى قد خرب
وسكر الكندى . وأمعن أشعب فى الغناء :
ما زلت آخذ روح الدن من لطف
وأستبيح دمماً من غير مجروح
حتى انثيت ولى روحان فى جسدى
والدن ، مُطرح جسم بلا روح
فطرب الكندى ولم يدر ما يصنع من شدة الطرب ، فشق قميصه
وقال لأشعب :

— افعل بنفسك مثل ما فعلت بنفسى ..
فنظر إليه أشعب دهشاً .. فصاح الكندى :
— ويلك ، شق أيضاً أنت قميصك !
فقال أشعب جزعاً :
— أصلحك الله ! أتريد أن أشقه وليس لى غيره !
فقال الكندى : « شقه وأنا أكسوك غداً » .
فأجاب أشعب : « فأنا إذن أشقه غداً » .
فقال الكندى : « وأنا ماذا أصنع بشقك غداً ؟ » .
فقال أشعب : « وأنا ماذا أرجو من شقه الساعة ؟ »
ولبثا فى ذلك وقتاً يتساومان ، وبنان ينظر إليهما ويعجب وأخيراً
صاح فى الكندى :

— ما كل هذا ؟ إني لم أسمع قط بإنسان يحاور وينظر في الوقت الذي إنما يشق فيه القميص من غلبة الطرب ! إذا كنت طربت الآن حقا ، فاكسه الآن القميص !

وهزت الكندي نشوة الخمر ونخزة الوهم ، في غفلة من غريزته النائمة فقام يتعثر إلى قميص جديد عنده فأقى به وكساه أشعب . فلما صار القميص على أشعب ، خاف البدوات ، وعلم أن ذلك من هفوات السكر ، فتحين الفرص ، وأوهم الكندي أنه ذاهب لقضاء حاجة ثم مضى توأ إلى منزله بالقميص فجعله « برشكانا » لامرأته ..

ومضى من الليل أكثره وركب النوم الكندي وبنان ، وهما ما يرحا في انتظار عودة المطرب . فانطرح بنان على الأرض جاعلا فراشه البساط ومرفقته يده ، ولم يكن في المكان غير مرفقة ومخدة . فأراد الكندي إكرام ضيفه فأخذ المخدة فرمى بها إلى بنان فأبأها وردھا عليه . وأى الكندي ، وأى هو . ولبثا هكذا يتطارحان التأدب ويتقارضان المجاملة في لسان متلعثم وجذع متمايل . إلى أن صاح صاحب البيت آخر الأمر :

— سبحان الله ! كيف يكون أن تتوسد مرفقك وعندي فضل مخدة !؟

فأذعن بنان وأخذها فوضعها تحت خده . ومر بعض الليل دون أن يغرق بنان في النوم ليس الفراش ورداءة الموضع . وظن الكندي أن الضيف قد نام . فجاء قليلاً قليلاً حتى سل المخدة من تحت رأسه . فلما رآه بنان قد مضى بها ضحك وقال : قد كنت عن هذا غنيا !

فارتبك الكندى وقال : « إنما جئت لأسوى رأسك » .
فأجاب بنان : « إني لم أكلمك حتى وليت بالخذة » .
فأجاب الكندى : « كنت لهذا جئت ، فلما صارت الخذة في
يدي ، نسيت ما جئت له ، والنبيذ ما علمت ، والله يذهب بالحفظ
أجمع ! » .

وأراد الكندى أن يرد عليه الخذة . فأبى بنان ، فألح وألح . وعادت
المناظرة والمحاورة والمطارحة من جديد . فلم يخلصهما منها إلا غلبة النوم
الثقيل في الهزيع الأخير من الليل . فانطرحا كأنهما حجران والخذة عن
كسب منهما منطرحه منفردة وحيدة .

وطلع النهار وأحس بنان ضرب الشمس في وجهه فنهض ونظر حوله
مذعوراً ، فأدرك ما كان فيه . ورأى الكندى ممدداً يخط على مقربة منه
فأسرع إلى نعله فحمله في يديه وانطلق إلى الطريق قبل أن يستيقظ .
وعلا النهار .. وأقبل أهل البيت ينقرون على باب الحجرة فصحا
الكندى . وفرك عينيه وألقى نظرة على المكان فهم منها كل شيء ،
فبحث عن الضيفين فلم يجدهما ، فصاح صيحة منكرة ووضع نعله في
قدميه وانطلق إلى مسكن أشعب فدق عليه الباب ، فخرج له فقال له :
— أين الساكن ؟

— لقد تركته بين يديك فأنت الذي تسأل عنه .

— وأين القميص ؟

— إنك قد وهبته إياه ..

فقال الكندى مقاطعاً في رفق مصطنع :

— أما علمت أن هبة السكران وشراءه وبيعه وصدقته وطلاقه لا يجوز ؟ فإنني أكره ألا يكون لي حمد ولا شكر ، وأن يوجه الناس هذا مني على السكر فرد على القميص حتى أهبه لك صاحياً عن طيب نفس . فإنني لا أحب أن يذهب شيء من مالي باطلاً .

فلم يتحرك أشعب لهذا القول . وعلم الكندي أن مغنيته ونديته ومستأجره لا تنطلي عليه هذه الحجج . فأقبل عليه يقول متلطفاً :

— يا أشعب ، إن الناس يمزحون ويلعبون ولا يؤخذون بشيء فرد القميص عافاك الله !

فقال أشعب «بتسماً : « إني والله قد خفت هذا بعينه . فلم أضع جنبي إلى الأرض حتى جئت به لامرأتى . وقد زدت في الكمين وحذفت المقادير ، فإن أردت بعد هذا كله أن تأخذه فخذة » .

فقال الكندي على الفور :

— نعم آخذه ، لأنه يصلح لامرأتى كما يصلح لامرأتك ومد ذراعه . فقال أشعب : « إنه عند الصباغ » .

فقال الكندي : « هاته » .

— ليس أنا أسلمته إليه .

فعلم الكندي أنه قد وقع ، ولا حيلة له ولا منفذ ولا أمل ولا رجاء ، فقال في زفرة حارة من كبد محروقة :

— بأبي وأمي ، صدق رسول الله حيث يقول : « جمع الشر كله في بيت وأغلق عليه ، فكان مفتاحه : السكر ! » .

أشعب وبنان

ما وافى عصر ذلك اليوم حتى جاء أشعب رسول يحمل رقعة من القينة الجميلة تستنجزه فيها الوعد ، وتخبره أنها راحلة في الغد إلى شأن من شؤونها في الكوفة ، وتعرض له في ختامها بجفاء قلبه وزيف وده وتبدي له ريبتها فيما يظهره لها من الوجد . فلم يدر أشعب ما يفعل ولا كيف يجب . فأمسك آخر الأمر بالرقعة وكتب في ذيلها :

أنا والله أهـواك ولكن ليس لي نفقة

فأما كنت تهوينسى فقد حانت لي الصدقة

فذهب الرسول بهذا الرد إلى الجارية ، وخرج أشعب إلى الطريق يستنشق الهواء ويفكر في أمر النساء ، وإذا العشيقة قد أقبلت بعد قليل ، فما كاد يراها حتى وقف في مكانه حائراً لا حراك به .

فسلمت عليه وقالت :

— لا تخش شيئاً . إنما أتيت لأودعك قبل رحيلي غداً . والله لولا

اشتغالي اليوم بإعداد حوائجي ومتاعى وإخلاء دارى لوافيتك بما تشهيت على من تلك الأطعمة التى يحبها قلبك وتهيم بها معدتك !

فقال لها :

— وماذا أنت صانعة في الكوفة ؟ أذهابة للغناء ؟

فقالت : « نعم ، إنك فيما أظن قد رضيتنى حذاقة به ومعرفة » :

فقال : « نعم ، ولكن اختلفي أيضا إلى مجمع مولى الزبير فإنه حسن الغناء ، فاعلقي من غنائه أصواتاً عشرة . فإنك والله لخليقة أن تفتني الناسك وتخرجيه من صومعته ساجداً لك » . فقالت :
— كنت أود أن أتزود منك الليلة بصوت أو صوتين . فسقط في يد أشعب . وارتبك واشتدت حيرته فلم ير ما يصنع . وتفكر لحظة ، ثم قال في نفسه : « ما لي إلا منزل بنان ! » ، ونظر إليها ثم قال :
« اتبعيني ! » .

وسار وهو يقلب الأمر على وجوهه ، إنه لا يجهل أن وقوع طفيلي على طفيلي لا يجوز ، ولكن وجود الحسنة معه فيه العذر والحجة ، وقد يرق بنان لجمالها فيتسع صدره وتنسبط يده ويوفى الضيافة حقها . واقتربا من الباب . فاستوقفا ، ثم ذهب فنادى رفيقه فخرج إليه فقال همساً :
— أكمل الخير ! معي وجه صبيح ، يعدل الدنيا بما فيها ، وقد حصل على ضيقة وعسر وإملاق .

فقال بنان على الفور :
— قد شكوت أنت والله مما كدت أباديك أنا لشكواه ! غير أنه نظر إلى ناحية المرأة ورأى رشاقة قدما فقال :
— ائت بها والله المستعان !

فدخلت القينة خلف أشعب ، واستقبلها بنان بالتحية ، فسفرت فإذا هو يرى وجهاً رقيقاً كأنه كوكب به عينا مملوءتان سحراً وأنف كأنه قصبة در ، وفم كأنه جرح يقطر دماً . وردت عليه التحية بلسان فصيح ، فحار بصره وذهب لبه وجل خطبه وتلجلج لسانه وتغللت

رجلاه ، ثم ثاب إليه عقله فدعاه للجلوس في صدر المكان وسألها قائلاً :

— أيتها الجارية ! إنسية أنت أم جنية ، سمائية أم أرضية ؟!

فضحكت القينة وقالت : « بل إنسية أرضية واسمى رشا » .

فسر أشعب واطمأن قلبه لما رأى من افتتان بنان ، وأنشد بصوته

الرخيم وصناعته البارعة :

رشاً لولا ملاحظته خلت الدنيا من الفتن

كل يوم يستـرق له حسنه عبداً بلا ثمن .

وأشار بإصبعه إلى بنان ، فقال بنان :

— إى والله عبد بلا ثمن ، لو سمحت بذلك سيدتى !

فابتسمت له الجارية ابتسامة طار لها لبه فقال :

— إنك والله لتختلسين الأرواح بحلاوة ابتسامتك وتذهلين الأبواب

ببراعة منطقك ، فكيف لو كنت تجيدين الغناء ؟

فتبادلت القينة مع أشعب النظر ، ثم انطلقت تغنى :

ولى كبد مقروحة ، من يبيعنسى

بها كبداً ليست بذات قروح ؟

أبى الناس ، كل الناس ، لا يشترونها

ومن يشتري ذا علة بصحيح ؟

فطرب أشعب . وقام بنان من فوره فجلس بين يدي الجارية وقال :

— كل مملوك لي حر وكل امرأة لي طالق ، لو كانت الدنيا لي كلها

صررا في كمي لقطعتها لك ، فأما إذا لم يكن لي من ذلك شيء ، فاللهم

اجعل كل حسنة لي لك ، وكل سيئة عليك علي .. !

فابتسمت رشاً وقالت :

— جزاك الله خيراً . فوالله ما يقوم الوالد لولده بما قمت به لنا .

فقام أشعب من فوره وقعد بين يديها وقال :

— كل مملوك لي حر وكل امرأة لي طالق إن كان وهب لك شيئاً أو حمل

عنك وزراً .. فهو ماله حسنة يهبها لك ، ولا عليك سيئة يحملها عنك .

فلأى شيء تحمدينه وتشكرينه ؟

فضحكت وضحك بنان .. وأمسك بنان بيدها فلثمها وقال :

— بحقى عندك .

— ماذا ؟

— تزيدني في السماع .

فنظرت إليه وقالت :

— وأنت ، كيف علمك بالغناء ؟

فقال مرتبكاً :

— علم لا أحمده .

فقال :

— فعلى ما إذن أنفخ بغير نار ! ما منعك من معرفته ؟ فتدخل أشعب

قائلاً : « منعه من معرفته أن له صوتاً أقبح من وجهي ! » .

فنظرت القينة إلى بنان وقالت باسمه :

— لن أردك مع ذلك خائباً .. أزيدك في السماع ! وانطلقت تغني :

أنا التي لم ير مثلي بشر

كلامى اللؤلؤ حين ينشر

أسحر من شئت ولست أسحر
إن سمع الناس كلامي كفروا
فاستخف أشعب الطرب ، ولم يدر ما يصنع فنهض في الحال ونزع
عمامته عن رأسه وألقى بها من النافذة . فصاح به بنان :
— ويلك ، ما فعلت بعمامتك ؟
فقال أشعب :

— تصدقت بها على الشيطان الذي أجرى هذا الكلام وهذا الغناء على
لسانها !

فأخذ بنان للفور عمامته هو أيضاً ورمى بها من النافذة قائلاً :
— أتسبقني أنت إلى بر الشيطان ؟
وضحكت الجارية . وضحك الجميع . وخرج أشعب إلى الطريق
يأتي بعمامته . وخرج بنان خلفه يفعل مثله ، فما كادا ينفردان حتى
همس أشعب في أذن صاحبه :

— ويحك ! متى الطعام والشراب ؟ هذا والله لا يليق فأخرج بنان من
ثيابه منديلاً نفيساً يضمن به ويحرص عليه ، وقال :
— لا أملك والله غير هذا المنديل .
فاختطفه أشعب من يده قائلاً :
— هو البغية .

فقال بنان : « خذه .. لا بارك الله لك فيه ! » .
وجرى أشعب به تَوّاً إلى السوق .
عاد أشعب مع المساء ، وقد باع المنديل بدينار ، واشترى لحماً

وخبزاً ونبيذاً ، ودخل على صاحبه بنان والجارية ، فإذا هما يتساقطان حديثاً كأنه قطع الروض المطور ، وإذا بنان يقول لها في شبه همس :

أترى الزمان يسرنا بتبلاق

ويضم مشتاقاً إلى مشتاق ؟

فتجيبه هي بصوت خفى وترجيح شجي :

ما للزمان يقال فيه ؟ وإنما

أنت الزمان ، فسرنا بتلاق

فوقف أشعب على رأسيهما قائلاً : « ما شاء الله ! ما شاء الله ! » .

فانتبها مذعورين ، والتفت بنان إلى رفيقه قائلاً : « ما صنعت ؟ » .

فوضع أشعب بينهما الطعام والشراب ، وأخبره بما فعل ، فقال له

بنان :

— كيف يصلح طعام وشراب وجلوس مع وجه نظيف بلا نقل

ولا ريحان ولا طيب ؟ اذهب فأكمل الخير !

فخرج أشعب يكمل الخير وهو يعدو عدواً حتى لا تطول له غيبة ..

وأقبل أشعب بالنقل والريحان والطيب وهو يلهث . وكان ظلام الليل

قد هبط . فألقى باب الدار مفتوحاً كعهده به عند خروجه ، فدخل .

وإذا هو لا يرى لصاحبيه ولا لشيء مما كان قد أتى به أثراً . فسقط في

يده . وبقي متلهفاً حائراً يرجم الظنون ويجهل الفكر سائر وقته ، حتى

مضى من الليل جزء ، ونفذ صبره ، فقال في نفسه :

— أفلا أدور في البيت لعل البحث يوقفني على أثر ؟

ونفض يجوس خلال الدار ، وإذا هو يقف على باب سرداب ، وإذا صاحبه قد هبطا فيه وأنزلا معهما جميع ما يحتاجان إليه ، فأكلا وشربا وتنعما . فلما أيقن أشعب ذلك دلى رأسه ثم نادى زميله :
— ويلك يا بنان !

فلم يجبه أحد . فرفع صوته ونادى ثلاثا . فأجابه آخر الأمر صوت بنان من أعماق السرداب :

وأمسيت في ليلين : للشعر ، والدجا
وشميسن من : كأس ، ووجه حبيب
ثم سكت الصوت . وأراد أشعب أن يستجلب كلام صاحبيه ، فلم يجيباه .

فبات وحده ليلة يقصر عمر الدهر عن ساعة منها طويلاً وغما . وطلع النهار ، فخرج إليه بنان ، فما كاد يراه حتى وثب إليه صائحاً :
— أهذا يصح يا بنان ؟

وجعل يؤنبه ، فقال له بنان :
— يا صفيق الوجه ! منزلي ومنديلي وطعامي وشرابي ، فما شأنك في الوسط ؟!

فبهت أشعب لحظة ، ورأى الجواب مفحماً فقال « متمحكاً » :
— حق القيادة والفضول ، والله لا غير !
وظهرت الجارية في تلك اللحظة ، فولى بنان وجهه إليها وقال لها :
— بحياتي ألا أعطيته حق قيادته وفضوله !
فقالت باسمه : « أما حق قيادته فعرك أذنه . وأما حق فضوله فصفع

قفاه » .

فنظر أشعب إليها فاغراً فاه . واستقبله بنان على الفور فحرك أذنه وصفعه ، فالتفت أشعب قائلاً :

— ما هذا ؟

فأجاب بنان : « الحكم » .

فوضع أشعب يده على مكان الصفحة ونظر إلى بنان شذراً :

— الحكم ؟!

فقال بنان باسمياً :

— نعم ، جرى الحكم عليك بما جرى لك من العدل والاستحقاق .
مرت أيام ضاقت فيها الدنيا بأشعب حتى نسي شكل الخبز وطعم اللحم . فخرج من الجوع يهيم في الأسواق . فلم يظفر بشيء . ولم يفتح الله عليه بمنظر أكل ولا آكلين . ولم يبلغ أذنيه حتى مجرد ذكر الطعام ، سوى قول جماعة مروا به في الطريق يتحدثون في أمر المسيح الدجال . فقال أحدهم :

— إن الدجال رجل يخرج في سنة قحط معه « جرادق » أصهباني ،

وملح « دراني » و« انجدان » سرنحسي !

فتلمظ أشعب وصاح فيهم :

— هذا ، عافاكم الله ، رجل يستحق أن يستمع له ويطاع !

ثم سار في طريقه على غير هدى ، حتى قادته قدماه إلى بيت صديقه بنان ، فوقف تحت نافذته وأنشد :

أننا في حال تعالي الله ربي أى حال
ليس لى شىء إذا قيل : « لمن ذا ؟ » قلت : « ذالى »
ولقد أفلست حتى تحت الشمس خيالى
ولقد أفلست حتى حل أكلى لعيالى
فأطل عليه بنان من النافذة وقال له : « ادخل ! » .
فدخل أشعب مسرعاً يقول : « حفظك الله وأبقاك ! » .
وجعل يتنسم رائحة قنار أو طعام فى البيت فبادره بنان بقوله :
— إني لم أدعك من أجل ذلك ! فأنا حالى كحالك إنما قد خطر لى
خاطر لعل فيه النجاة لى ولك .
— ما هو ، أصلحك الله ؟
— ما قولك لو رحلنا معاً اليوم إلى مكة فقد نجد فيها رزقاً ؟ وقديماً
قالوا : فى السفر سبع فوائد . ونحن والله لا نبغى غير فائدة واحدة هى :
الطعام ومباشرة الكرام .
— وكيف لنا بالسفر ؟
— اليوم ترحل قافلة إلى مكة ، لى فيها من يحملنى ويحملك بغير
نفقة .. فهل بنا !
مضى أشعب وبنان من ساعتها إلى القافلة . وكان اليوم يوم جمعة .
فبينما هما فى الطريق مرا بمسجد قد ازدحمت فيه الناس تصلى الجمعة .
فتمهل أشعب ، وحديثه نفسه بالصلاة . فأخبر زميله ، فانتهره ، وثناه
عن رغبته فأصر أشعب قائلاً :
— أريد أن أستعين ببركات الصلاة على وعشاء الفلاة .

(أتعب)

— اذهب أنت وحدك ، ولئن فاتتك القافلة فليس على لوم .

— إنما هي ركعة أستودع بها المدينة .

ومشى بنان في طريقه . وعرج أشعب على المسجد ودخل . وكانت الصلاة قد بدئت . ووجد الصف تاماً . فلم يستطع أن يقوم وحده ، فجذب ثوب شيخ أمامه في الصف ليتأخر فيقوم معه ، فلما تأخر الشيخ ورأى أشعب الفرج تقدم فقام في موضع الشيخ وترك الشيخ قائماً خلفه في قفاه ويدعو الله عليه . وكان الإمام من سوء الطالع رجلاً مبطأً ثقيل الحركات ، فجعل يقرأ فاتحة الكتاب بقراءة « حمزة » مد وهمة ، ثم انحنى للركوع بنوع من الخشوع لم يعهده أشعب من قبل ، ثم رفع رأسه ويده وقال : « سمع الله لمن حمده » وقام حتى ما شك أشعب أنه قد نام . وحل بأشعب الغم وأيقن بفوات القافلة وضرب الإمام يميناه وأكب لجبينه ثم انكب لوجهه ، وأشعب يتقل على نار الصبر ، ويتقلب على جمر الغيظ ، وليس له إلا السكوت والإذعان ، أو الكلام والقبر ، لما يعلم من خشونة القوم في ذلك المقام لو أنه قطع الصلاة قبل ختامها . فنزل على حكم الضرورة وقد قنط من الرحل والرحيل . ثم راجعه الأمل فرفع رأسه ينتهز فرصة فلم ير بين الصفوف فرجة . فعاد إلى السجود يائساً ، حتى كبر الإمام للعود وقام إلى الركعة الثانية فقرأ الفاتحة وسورة القارعة قراءة استوفى بها عمر الساعة ، وكاد يستنزف أرواح القوم . فلما فرغ من ركعتيه وأقبل على التشهد ومال إلى التحية ، وقال أشعب في نفسه : « لقد سهل الله المخرج وقرب الفرج » إذا رجل قد قام من بين الناس

صائحاً : « أيها الناس من كان منكم يحب النبي والصحابه فليعزني سمعه ساعة » فلم ير أشعب مناصباً من أن يلزم مكانه كما فعل جميع الناس .
وصاح الرجل : « أيها الناس ! خليك بي أن لا أقول غير الحق ولا أشهد إلا بالصدق . قد جئتكم ببشارة من نبيكم ، ولكني لا أؤديها حتى يظهر الله هذا المسجد من كل نذل يجحد نبوته .

فربط هذا القول أشعب بالقيود وشده بالحبال ، فلو تحرك بعدئذ وقام من بين الناس لكان هو ذلك النذل الجاحد في نظر الجميع ، ومضى الرجل يقول : « رأيته في المنام ﷺ كالشمس تحت الغمام والبدر ليل تمام ، يسير والنجوم تتبعه ، ويسحب الذيل والملائكة ترفعه ، ولقد علمني دعاء أوصاني أن أعلمه أمته ، فكتبته على هذه الأوراق بمسك وزعفران ، فمن دفع لي ثمن القرطاس أعطيته » .

فانهالت الدراهم على الرجل حتى حيرته ، ورأى أشعب ذلك فتعجب من حذق الرجل واحتياله لرزقه ، وجعل يتأمل فصاحته في وقاحته ، وربطه الناس بهذه الحيلة البارعة ، وأخذ المالك الوافر بهذه الوسيلة اليسيرة !

وخرج أشعب من المسجد وهو يفكر في الأمر ويقول في نفسه : « ما كان أحرانا أن نحتال للعيش بمثل هذه الحيل ، بدلاً من انتظار الولايم والأعراس ! » ، وسار في طريقه حتى بلغ مكان القافلة فعلم أنها رحلت بصاحبه . فعاد خائباً في غم وجوع لا يدرى أين يذهب ولا كيف يجد غذاءه ، وإذا هو برجل من ريف المدينة يسوق حماره وعلى وجهه إمارات السذاجة ، فقال في نفسه : « ظفرنا والله بصيد ثمين » .

وأقبل على الريفى صائحاً : « حياك الله يا أبا زيد ! من أين أقبلت ؟
وأين نزلت ؟ ومتى وافيت ؟ هلم إلى بتي ! » .
فوقف الرجل دهشاً يقول : « لست بأبي زيد ، ولكنى
أبو عبيد » .

فقال أشعب فى صوته المستدرك : « نعم لعن الله الشيطان وأبعد
النسيان ، أنسانيك والله طول العهد ، كيف حال أبيك ؟ » .
فقال الرجل : « لقد نبت الربيع على قبره » .
فصاح أشعب : « إنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله
العلئ العظيم ! » .

ومد يده إلى صدره يريد أن يمزق قميصه من الجزع ، فقبض الريفى
على يده قائلاً : « نشدتك الله لا تمزقه ! » .
فأظهر أشعب التجلد والطاعة ، وأبقى على ثوبه ثم جذب يد الريفى
قائلاً :

— هلم إلى بيتى كى نتغدى ، أو إلى السوق لنشترى شواء ، نعم ...
السوق أقرب وطعامها أشهى .

ومشى به إلى حانوت شواء تتصاعد رائحة دخانه شهية إلى الأنوف
فتحرك أفواه البطون ، وقال أشعب لصاحب الحانوت : « افرز لأبى
زيد من هذا الشواء ! » .

ونظر إلى صوانى معروضة وقال : « ثم زن له من تلك الحلوى ،
واختر له من تلك الأطباق ، وانضد عليها أوراق الرقاق ورش عليها شيئاً
من السكر وساء الورد ليأكله أبو زيد هنيئاً ! » .

فانحنى الشواء بساطوره على ذلك اللحم الطرى . وقطع وقدم إلى أشعب والريفى ، فجلسا وأكلا حتى استوفيا . فقال أشعب لصاحب الحلوى :

— زن لأبى زيد من اللوزينج رطلين ، فهو أجرى فى الحلوق ، وليكن رقيق القشر كثيف الحشو لؤلؤى الدهن يذوب كالصمغ قبل المضغ ، ليأكله أبو زيد هنيئاً .

فوزن صاحب الحلوى لهما . وقعد الرجلان وشمرا حتى استوفياه ، فقال أشعب للريفى : « يا أبا زيد ، ما أحوجنا إلى ماء مشعشع بالثلج يبرد جوفنا بعد هذه الأكلة النظيفية ! » .

فقال الريفى : « صدقت » .

فقام أشعب وهو يقول له : « اجلس يا أبا زيد ولا تبرح حتى نأتيك بسقاء ! » . وخرج أشعب فائزاً بالسلامة ومعدة مملوءة .

ومضى النهار ، وعلم الريفى من إبطاء أشعب أنه لن يعود ونفذ صبره من طول الانتظار ، فقام إلى حمارة ، فلمحه صاحب الحانوت فتعلق بثوبه وقال له : « أين ثمن ما أكلت ؟ » .

فقال الريفى : « لقد أكلته ضيفاً » .

فلكمه صاحب الحانوت لكمة ، وثنى عليها بلطمة وقال له : « متى كنا دعوناك ؟ » هاك فخذ ...

ونزل عليه الشواء لكما ولطما وهو يقول :

— زن يا أبا الوقاحة عشرين !

وجعل الريفى يصرخ ويلعن ويصيح : « لعن الله ذلك الشيخ

المحتال ، لقد قلت له أنا أبو عبيد ، فيقول لى أنت أبو زيد ! » .

أشعب في مكة

مرت الأيام وأشعب لا يسمع خبراً عن بنان . ولا يجد سبيلاً إلى لقمة ، فقد عرفه الناس في المدينة فلم تعد تنفع الحيلة ولا الوسيلة ، ولم تعد تقع عينه على خوان ولا على قوم أمام طعام ، كأنما الناس في لؤمهم قد أصبحوا يأكلون في بطون الأرض أو أجواز السماء . ومشى أشعب غداة ذلك اليوم لا ينتظر شيئاً ولا يفكر في شيء ، فدهم في جانب من جوانب الطريق جماعة يتغدون وهم غرباء لم يعرفوه . فقال لهم :

— سلام عليكم معشر اللئام !

فرفعوا أبصارهم إليه قائلين : « لا والله بل كرام ! » .

فثنى رجله في الحال وجلس بينهم وهو يقول :

— اللهم اجعلهم من الصادقين واجعلني من الكاذبين !

ثم مد يده في القصعة التي بين أيديهم وهو يقول : « ماذا تأكلون ؟ » .

فأرادوا أن يقفوا تهجمه ، فقالوا في فتور : « نأكل سمّاً ! » .

فحشا فمه وازدرد وهو يقول :

— الحياة بعدكم حرام !

وجعل يجول في القصعة كما يجول الفارس في الميدان . فلما رأوه قد أغار على أكلهم ، وكاد يحرمهم زادهم في غير حشمة ولا حياء ، نظر

بعضهم إلى بعض، ثم التفتوا إليه قائلين :
— أيها الرجل ! هل عرفت منا أحداً ؟ فأشار أشعب بإصبعه إلى
الطعام وقال : « عرفت هذا » .

فسكتوا عنه ، وقد استظرفوه ، وتبادلوا الحديث ، فعرف منهم
أشعب ، أنهم من أهل مكة ، وقد جاعوا في القافلة الأخيرة ، وقال
أحدهم إن معه رقعة من رجل اسمه بنان في مكة لرجل اسمه أشعب في
المدينة ، فاهتز أشعب سروراً وكشف لهم عن حقيقته ، وتسلم الرقعة ،
وقرأها فعلم منها أن صاحبه قد استقر في أحسن حال .. وقد بارحته أيام
العسر والضيق .. وله حرفة شريفة يدر منها المال ، وهو يسأله أن يأتي إليه
مع أول قافلة متهيئة للرحيل ، كي يعاونه في ذلك العمل ويشاركه في
ذلك الكسب الحلال ...

* * *

قام أشعب من فوره فرحل مع قافلة ذاهبة إلى مكة . ولم يكن معه مال
ولا أحمال ، ولم يدر كيف غاب عن فطنة بنان ، وقد أصبح حسن الحال
كما قال : أن يرسل إليه مع الرقعة بما يقيم أوده حتى الوصول . لعله خشي
أن يأخذ أشعب المال ويكسل عن تجشم الرحيل . ولم يعدم مثل أشعب
الوسيلة ، فقد سار مع القافلة على قدميه يغنيهم ويضحكهم ، وقد كان
سيره أول الأمر إلى جانب ناقة عليها شيخ وشاب ، فلحظ أن الشاب
كثير البكاء ، فاستعلم فأخبروه أنه عاشق لابنة عمه وقد فرقت بينهما
الأحداث ، وأن الشاب اشترك مع ذلك الشيخ في السفر والمؤونة وكان
على ضيقة وعسر . فجعلا لهما في كل يوم قرصاً من الخبز . وكان الشيخ :

متخلع الأضراس بطيء الأكل ، فكان الشاب يبطش بالقرص ثم يقعد
يشتكى العشق ، ويتضور الشيخ جوعاً ، وكان اسم ذلك الشاب
جعفراً ، فجعل أشعب يغني فيهما قائلاً :

لقد رابني من جعفر أن جعفر
يطيش بقرص الشيخ في آخر الليل
فقلت له : لو مسك الحب لم تبت
سميناً وأنساك الهوى شدة الأكل

فضحكت القافلة وأنست إلى أشعب ، وحمله معه رجل من التجار
يسافر وحده على جمل ، فلبث أشعب معه طول الطريق ينزلان
ويقومان ، والرجل في كل يوم يحضر الطعام ويجهزه وأشعب لا يصنع
شيئاً . فقال له الرجل ذات يوم : « قم اليوم فاطبخ » .

فقال أشعب : « لا أحسن ذلك » .

فطبخ الرجل ، ثم قال لأشعب : « قم فأثرد » .

فقال أشعب : « والله كسلان » .

فثرد الرجل ، ثم قال : « قم فاغرف » .

فقال أشعب : « أخشى أن ينقلب على ثيابي » .

فغرف الرجل ثم قال لأشعب : « قم الآن فكل » .

فنهض أشعب قائلاً : « قد والله استحييت من كثرة خلافي

عليك ! » وتقدم إلى الأكل فقام فيه مقام رجلين .

* * *

وصل أشعب إلى مكة وسأل عن بنان ، ف قيل له إنه كان قد استأجر

دارا في مكة يجمع فيها بين الرجال والنساء ويحمل لهم الطعام والشراب . فشكاه الناس إلى وإلى مكة فنفاه إلى عرفات ، فمشى أشعب من ساعته إلى عرفات ، فوجد صاحبه قد أقام فيها منزلا ورأى أمام المنزل قطيعا من الحمير مرتبطة ، فما رآه بنان داحلا عليه حتى فتح له ذراعيه وبعانقا ، وأخبره بما هو فيه من الرخاء واستواء السبل وأنه لا ينقصه تمام سرور من يجبنونه غير الغناء والطرب ، وهذا لا يقوم به غير أشعب ، ولهذا أرسل إليه ، فتأمل أشعب المكان وقال لصديقه : « أهذا هو العمل الشريف والكسب الحلال ! » فأنهره بنان وقال له : « أليس هذا أشرف من أن ندعو أنفسنا إلى موائد الغير وشرابهم ؟ إنما ندعو الآن الناس إلى شرابنا نحن وموائدنا وغنائنا ، فماذا في ذلك ؟ » .

فقال له أشعب :

— أما نفاك وإلى مكة ؟ فكيف يجيئك الناس ها هنا ؟

فأجاب بنان :

— الأمر هين . فقد أرسلت إلى الناس أقول : « ما يمنعكم من أن تعاودوا ما كنتم فيه ! » فقالوا : « وأين بك وأنت في عرفات ؟ » فقلت لهم : « حمار بدرهم وقد صرتم على الأثر فضلا عن النزهة » . ففعلوا . وما زالوا يفعلون ، وتلك حميرهم بالباب .

استطاب أشعب تلك الحياة الجديدة ، لقد عرفت يده ثقل الدراهم ، وبطنه الشبع ، وظهره الكساء ، وأصبح الشراب من لزوم عمله . لا يفيق منه إلا إليه . وهو يعد شريك بنان في كل ما ملك حتى في ذلك الخادم الذي يقوم بخدمتهما .

ولم يدر أشعب أين ينفق ماله ، ولم يشأ أن يركب حمارا بالكراء يحمله
في غدواته وروحاته من مكة إلى عرفات ، ومن عرفات إلى مكة .
فذهب إلى نخاس بسوق الدواب فقال له :

— اطلب ما شئت من الثمن ، وأعطني حمارا يليق بي وأليق به .
فقال النخاس وهو ينظر إلى بذخ أشعب :
— تبغى حماراً عظيماً الهيئة سريع الخطوة ؟..
فقال أشعب :

— أبغى حمارا ليس بالصغير المحتقر ولا بالكبير المشتهر ، إذا خلا له
الطريق تدفق ، وإذا كثر الزحام ترفق ، إن أقللت علفه صبر ، وإن أكثرته
شكر ، وإذا ركبته هام ، وإن ركبه غيرى نام .
فنظر إليه النخاس محملاً مشدوها ثم قال له :
— يا عبد الله ، اصبر . فإن مسخ الله قاضي مكة حماراً أصبت
حاجتك إن شاء الله .

ثم أراه بعد ذلك حماراً حسن المنظر أنيق المظهر ليس به من الخصال
ما طلب أشعب . ولكن فيه من الأمارات ما يغرى ، فركبه أشعب من
ساعته ونقد الرجل الثمن . ومشى به يتبخر ، مشية لم يعرفها من قبل
لا على قدميه ولا على ظهر دابة . وعاد به إلى عرفات .. فلم يخلطه مع
الحمير الواقعة بالباب ازدراء لشأنها وتعظيمها لشأنه . فربطه وحده تحت
نافذة بنان ، ودخل فألفى مجلس الشراب قائماً ، والرجال والنساء
مختلطين . وبنان ليأسه من غيبة أشعب في السوق ، ولما صور له السكر
من الوهم والخيلاء قد حل محل أشعب في الغناء . وإذا القوم يضحجون ،

يريدون أن يسكتوه وهو لا يريد أن يسكت ، وما كادوا يرون أشعب
داخلا حتى هللوا فرحين ، وأقبل عليه الرجال وأقبلت النساء ،
وارتفعت الأصوات تقول له :

— أسكت لنا صاحبك !

فأراد أن يسكته فلم يستطع ، وأقبل الناس على بنان يقولون له :
— لقد حضر أشعب ، فمن أحسن غناء .. أنت أو أشعب ؟
فقال بنان :

— أنا شيء . وأشعب شيء .. أنا أغنى بدرهم . وأسكت بدينار ،
أما أشعب فيغنى بدينار ويسكت بدرهم ، فسكوتى إذن أغلى من
سكوت أشعب ! فوالله ما أسكت حتى تدفعوا الثمن !

فصاح الناس :

— ندفع والله !

وصاحت النساء تطلب إلى أشعب أن يغنى فقال لهن :
— بضمنه كما قضى زميلي .

فقلن :

— ندفع والله ..

فسكت بنان . ونهق الحمار تحت النافذة . فقال أشعب :

— هذا والله هو وحده الذى طرب لغناء بنان !

ثم شرب رطلين ورفع عقيرته يغنى بصوته الحسن ويشير إلى بنان :

ومغنى إن تغنى أورث الندمان هما

أحسن الأقوام حالا فيه من كان أصما

فضحك المجلس وطرب وانهاالت على أشعب آيات الحمد
والإعجاب ...

* * *

مرت الأيام وشاعت في مكة أخبار ذلك المنزل في عرفات ، وأعاد
أهل مكة الشكاية إلى الوالى إن هذين القوادين لا يفتران عن هذا الفعل ،
حتى فسدت أحداث مكة . فأرسل الوالى الشرطة إلى بنان وأشعب
ليحضروهما ، وكانا قد قاما عن العشاء وامتلاً بطناهما بألوان الطعام .
وقد شرب ليلئذ أشعب حتى جعل يقول لمن حضر :

اسقنى صرفاً حمياً ترك الشيخ صبياً

وتريه الغسى رشداً وتريه الرشد غياً

ورأى خادماه الشرطة مقبلين ، فأسرع يخبرهما وكانا قد أعدا
سرداباً يخفيان فيه الناس والحمير إذا وقع خطب من هذه الخطوب . فبادر
إلى محو آثار ما كانوا فيه . وكبس الدار رجال الوالى .. فلم يجدوا غير
أشعب وبنان .. فقادوهما إلى مكة . فذهبا وتركاهما يطلق الناس
إذا لاحت ساعة الأمن والسلامة . ودخل الرجال بأشعب على الوالى ،
فلما رآه قال :

— ليس هذا بينان ، من أنت أيها الرجل ؟

فغمز أشعب بعينه وقال : « خادمك وعبدك ! » .

ولحظ الوالى من حركاته ما جعله يقول لرجاله :

— هذا الرجل شارب .

فقال أشعب : « لا .. أصلحك الله ! » .

فقال الوالى : « استنكهوه ! » .

فأقبل الرجال على أشعب فشموا رائحة فمه ، ثم قالوا :
— إن نكهته لا تبين عليه .

فقال الوالى : « قيئوه ! » .

فصاح أشعب : « وإن لم أقع شرابا فمن يضمن لى عشائى ؟ ! » .
ولم يكذب بتم عبارته .. حتى دخل بقية الرجال بنان . فلما أن رأى
الوالى بنان حتى عرفه وصاح به :

— يا عدو الله ! طردتك من مكة فصرت تفسد فى المشعر الحرام !
فقال بنان : « يكذبون على ، أصلح الله الأمير » .

فأمر الوالى بوضعهما فى الحبس حتى الصباح . وما إن طلع النهار
وجلس الوالى فى مجلسه حتى أمر بأصحاب الشكاية فأحضروا . فسأهم
الدليل فقالوا : « أصلحك الله ، الدليل على صحة ما نقول أن تأمر بجميع
حمير مكة فترسل بها أمناء إلى عرفات ، فيطأقوها فإن وقفت كما داتها على
منزله دون المنازل ، فنحن غير كاذبين ولا مبطلين » .

فقال الوالى : « نعم ، إن فى هذا لدبلا وشاهدا عدلا » .

وأمر من ساعته بحمير من حمر مكة التى للكراء ، فأرسلت وأطلقت
فإذا هى تصير إلى منزل بنان لا تلوى على شىء ، كأنها به عليمه خبيرة .
فلما علم الوالى بذلك قال : « ما بعد هذا شىء .. جردوه ! » .

فأتى الرجال بنان وجردوه من ثيابه ، فلما نظر إلى الساط ، التفت
إلى الأمير قائلا : « لا بد أصلحك الله من ضررى ؟ » .

فقال : « نعم يا عدو الله ! » .

فقال بنان :

— والله ما فى ذلك شىء هو أشد على نفسى ، من أن يشمت بنا أهل العراق ويضحكوا منا ، ويقولوا أهل مكة يجيزون شهادة الحمير !

فضحك الوالى ، وفكر قليلا ، ثم قال :

— أتحب أن أخلى سبيلك ؟ على شرط ..

— وما هو حفظك الله وأبقاك !

— أن تغادر من ساعتك أنت وصاحبك هذه البلاد .

ذهب بنان وأشعب توا إلى عرفات ليحملا متاعهما ويرحلا كما أمر الوالى . فوجدا خادما قد سبقهما إلى النية ، فوضع الدراهم والملابس وما خف وغلا فى صرر ، وتهيأ للهرب . فوثب عليه بنان فضربه ضربا مبرحا ، فقال أشعب :

— ماذا تصنع ؟ لا تضرب العبد كل هذا الضرب فقد دفعت فيه كما دفعت أنت.. وحقى فيه كحقك أنت !

فقال بنان :

— إنى أضرب نصيبى منه !

فأشار أشعب إلى الصرر :

— وهذه ؟

فقال بنان :

— كل شىء يقسم بيننا بالعدل ..

فقام أشعب إلى الخادم فضربه هو أيضاً قائلاً :
— وأنا أضرب حصتي فيه ..

فانفلت منهما العبد وكان جلداً نشطاً ذكياً ، ورفع ثيابه وسلح
عليهما وقال : « اقسما هذه على قدر الحصص ! » .
وولى الأدبار . وبقيا هما مشغولين يومهما بجمع ما استطاعا جمعه
وبيع ما قدرا على بيعه ، وخرجا من ذلك النعيم آسفين ...

أشعب في الحمام

عاد أشعب وبنان إلى المدينة ، فدخلها دخول الظافرين ، خلفهما عبدهما الهارب — وقد راجعناه وأردناه — يحمل لهما الصرر والخيرات . وقد تعاهدا على أن يقيما معاً في منزل واحد لينفقا فيه هذا المال سوياً . وذهب أشعب إلى داره أول الأمر ، فرأى امرأته وبناته وترك لهم بعض النفقة ، وعرج على الكندي يسأل عن خبره ويضحك من أطواره ، ويرى كيف وقع العودة عليه ، فسأل عنه فقيل له إنه خرج فقير من بكرة الصباح ليقتضى رجلاً خمسة دراهم فضلت ديناً عليه ، وأن هذا ما يشغله منذ أيام طويلة ، فهو يخرج من أجل هذا الدين من أول النهار فلا يرجع إلا مع آخره لبعث الشقة وكثرة المماطلة ، فجلس أشعب ينتظره حتى رجع ، فما وقع نظر الكندي على أشعب ببابه حتى استقبح لونه ، فابتدره أشعب صائحاً :

— لا تخش شيئاً ، بأبي أنت وأمي !

وقص عليه أخبار الرحلة ، وأراه ما هو فيه من النعمة فأشرق وجه الكندي ، وجعل ينظر إلى ثوب أشعب النظيف معجباً أول الأمر ، غير أنه عاد فهز رأسه وقال متفاخراً :

— لا والله .. أين ذلك القميص !

فلم يفتن أشعب وقال :

— أى قميص !؟

وفجأة تذكر الليلة التى سكر فيها الكندى ، فضحك حتى دمعت عيناه ، فأراد أن يسره ويهون عليه تلك المصيبة التى ما زال يذكرها ، فدعاه إلى طعام وشراب فى ذلك المنزل الذى جعله هو وبنان لمنادمتها . ومضى أشعب فأخبر صديقه وشريكه ليعد وليمة فى ذلك المساء ورأى أشعب أن شعره قد طال وبدنه قد اتسخ من طول السفر .

فقال للخادم :

— اختر لنا حماما نظيف البقعة طيب الهواء معتدل الماء ، وحلاقاً خفيف اليد حديد الموسيقى قليل الفضول .

فقداه الغلام إلى ما أراد ، ودخل أشعب الحمام ، فلم يرعه إلا رجل قد دخل على أثره وعمد إلى قطعة طين فلطخ بها جبينه ووضعها على رأسه ثم خرج ، ودخل آخر فجعل يدلكه دلكاً يكد العظام ويغمزه غمزا يهد الأوصال ، ثم عمد إلى رأسه يغسله ويرسل عليه الماء ، وإذا الأول قد عاد فرأى الثانى منهمكا فى العمل فلكمه لكمة كادت تطير أسنانه وقال له :

— يا لكع ، ما لك ولهذا الرأس وهو لى ؟

فقام إليه المضروب وعطف عليه بلطمة كادت تضيع صوابه : وقال

له :

— بل هذا الرأس حقى وملكى وفى يدي .

وتلاهما حتى تعباً ، وتخاذبا الأثواب وسارا يتحاكمان إلى صاحب

(أشعب)

الحمام . فقال له الأول :

— أنا صاحب هذا الرأس ، لأنى لطخت جبينه ووضعت عليه الطين .

وقال الثانى :

— بل أنا مالكه ، لأنى غسلته ودلكت صاحبه .

فقال الحمامى :

— ائتونى بالزبون أسأله لأيكما هذا الرأس ؟

فذهب الرجلان إلى أشعب وقالاه :

— لنا عندك شهادة ، فقم معنا !

وكان أشعب ما زال موضوعا فى مكانه وضعا لم يفهم مما حدث أمامه شيئا ولا أدرك لهذا الشجار معنى ، فنهض وسار معهما إلى صاحب الحمام ، فابتدره الحمامى قائلاً :

— يا رجل لا تقل غير الصدق ولا تشهد بغير الحق ، قل لى : هذا الرأس لأيهما ؟

فوقف أشعب دهشاً مشدوهاً لحظة ، ثم قال :

— يا عافاك الله ، هذا رأسى أنا ، قد صبحبنى طول الطريق من المدينة إلى مكة ومن مكة إلى عرفات ، وما شككت أنه لى .

فقال له الحمامى منتهرا :

— اسكت يا فضولى !

ثم مال إلى أحد الخصمين وقال له :

— يا هذا .. إلى متى هذه المنافسة بينكما على رأس صغير الشأن قليل

الخطر !

ثم عرج على الخصم الآخر وقال مهونا عليه :

— وأنت يا هذا ! هب أنك لم تر رأس هذا التيس !

فقام أشعب من ذلك المكان خجلا ، وارتدى ثيابه على عجل وانسل

من الحمام ، فوجد خادمه المنتظر بالباب يقول له :

— نعيما إن شاء الله !

فهوى في الحال بكفه على قفا الخادم .

— أنعم الله عليك بهذا !

أشعب والحلاق

أسرع أشعب فدخل المنزل وأوصى الغلام أن يأتيه بحلاق ، وأن يحذر هذه المرة ، فلا يحضره فضولياً ولا ثرثاراً . فحسبه ما ذهب من الوقت في غير شيء ، سوى ما رآه من شجار وما لحقه من سياب ! فانصرف وعاد برجل ، دخل فسلم وما هو إلا أن دارت يده على وجه أشعب حتى قال له :

— جعلت فداك ، هذا وجه لا أعرفه ، فمن أنت ؟

فقال أشعب :

— اسمي أشعب .

فقال الحلاق :

— بأبي أنت وأمي ، هذا الاسم لا يجهله أحد في المدينة ! ومن أين قدمت ؟ فإني أرى أثر السفر عليك ؟

فقال أشعب :

— من مكة ..

فقال الحلاق :

— حياك الله ، من أرض النعمة والرفاهة ، وبلد رسول الله الكريم . لقد حضرت في شهر رمضان جامعها وقد أشعلت فيه المصابيح وأقيمت

التراويح ..

وجعل يقص قصة طويلة لا آخر لها ولا معنى وأشعب يصبر نفسه .
وفرغ الحلاق من القصة فعاد يسأل :
— وأى شيء أقدمك ؟ أصلحك الله !

فأجاب أشعب :

— أقدمنى الزمن وتقلباته ، ولكن إذا فرغت سأخبرك بالأمر على وجهها .

فقال :

— وتعرفنى بالمنازل والسكك التى جئت عليها .

فقال أشعب :

— نعم .

وكان الخادم واقفاً على مقربة منهما . فنظر إليه أشعب نظرة قاسية .
فدنا منه الغلام وهمس فى أذنه معتذراً :

— لن أجد حلاقاً يسكت حتى يفرغ !

ومالت الشمس إلى الغروب . ولم يفرغ الحلاق من الكلام ،
ولم يفرغ مما جاء له ، وأخيراً قال :

— لو كانت الاستطاعة قبل الفعل لكنت قد حلقت رأسك . فهل ترى أن نبتدىء ؟

فأسرع أشعب قائلاً :

— وماذا كنت تصنع فيما مضى من الوقت ؟

ونفض فوثب بعيدا . وما أن استوثق أنه أفلت من يد الحلاق
ومواسيه ، حتى صاح فى الخادم :
— علق هذا الحلاق من العقبين .

فهجم عليه الخادم بسواعده القوية وعلقه كما أمر . فقال له أشعب :
— جعلت فداك ، سألتنى عن المنازل والسكك التى قدمت عليها ،
وأنا مشغول فى ذلك الوقت ، وظننت أنك مشغول بعملك ، فأنا أقصها
عليك الآن ، فاستمع : خرجنا من مكة فى المساء فنزلنا بئرا ذات نخيل فى
ظهرة الغد . يا غلام ، أوجع !

فضربه العبد عشرة أسواط . فقال أشعب :
— وركبنا عند المساء فنزلنا عين ماء حولها عشب عند طلوع النهار .
يا غلام ، أوجع !

فضربه الخادم عشرة أخرى . وقال أشعب :
— ثم ركبنا ضحى اليوم وسرنا إلى نجع وقد أشرفنا على الأصيل .
يا غلام ، أوجع !

فضربه العبد عشرة ثالثة . وقال أشعب :
— وبعدها ركبنا وسرنا حتى وجدنا ...
فصاح الحلاق مقاطعا :

— يا سيدى ، سألتك بالله إلى أين تريد أن تبلغ ؟
فقال أشعب :
— إلى المدينة .

— لست تبلغها حتى تقتلني .

فقال أشعب :

— أتركك على ألا تعود ؟

فصاح الحلاق :

— والله لا أعود أبدا .

فتركه . وكان المساء قد أقبل . وحضر بنان والكندي .. وأبصرا
الخادم يحل وثاق الحلاق ، فسألا فأخبرهما أشعب الخبر .

فقال الكندي :

— وددت أنك بلغت به إلى أن تأتي على نفسه !

على الخوان

جلس الجميع يتحادثون ساعة قبل أن يوضع بينهم الخوان ويقدم
الشراب . وحلف أشعب على الحلاق أن لا يبرح حتى يحضر معهم
العشاء . فقد كفاه من التأديب ما أكله من يد العبد . وأخذ الكندى
يجول بنظره فى أنحاء المكان ويعجب بالرياش . ولحه بنان فقال له
مبتسماً :

— أراك شديد العجب !

فقال الكندى :

— إى والله نعم .

ثم أردف سائلاً :

— ومتى كان الرحيل ؟ قبل أن أهدي أشعب القميص بكم يوم ؟

فلم يفطن بنان وقال :

— أى قميص ؟

فابتسم أشعب وتذكر عندئذ أمراً كان يود أن يسأل الكندى فيه .

فأقبل عليه يقول له :

— بالله ألا إخبرتنا : إنا نراك لأول مرة تصنع شيئاً الفساد فيه ظاهر

والفائدة لك فيه غير مرجوة . أخبرنا عن مضيك كل يوم إلى رجل فى

آخر السوق لتقتضى منه خمسة دراهم ديناً عليه .. أهو حزم منك ؟
لا ، إنما الحزم أن يتشدد الإنسان في غير تضييع .

فالتفت الكندى إليه قائلاً :

— وما هو وجه التضييع ؟

فقال أشعب :

— وجوه التضييع كثيرة . فواحدة : أنا لا نأمن عليك انتقاض بدنك
وقد خلا ما خلا من سنك ، وأن تعتل ، فتدع التقاضى الكثير بسبب
هذا القليل أو تتشاغل بالبعيد عن القريب ، وثانية : أنك إن تجهد هذا
الجهد فلا بد لك من أن تزداد في العشاء إن كنت ممن يتعشى أو تتعشى إن
كنت ممن لا يتعشى . وهذا إذا اجتمع كان أكثر من خمسة دراهم . وبعد
فإنك تحتاج أن تشق وسط السوق وعليك ثيابك ، والحمولة تستقبلك ،
فمن ههنا نثرة ومن ههنا جذبة ، فإذا الثوب قد أودى ، ومن ذلك
أن نعلك تنقب وترق ، وساق سراويلك تتسخ وتبلى ، ولعلك أن تعثر
في نعلك فتفقدوها قدا ، ولعلك تهترها هرتا من كثرة الذهاب والإياب في
سبيل هذا الدين الزهيد . منذ متى وأنت تذهب للمطالبة والاقتضاء ؟
فقال الكندى :

— منذ يومين من تاريخ الليلة التى أهديت فيها لك القميص .

فأنخفى أشعب ابتسامة ومضى يقول :

— مضى إذن وقت طويل وأنت على هذه المشقة تتكبد كل ما ذكرنا

لك من الخسائر ، ولا تجنى إذا جئيت إلا خمسة دراهم . ولما كنا نثق

دائماً بحكمتك فى كل تصرفاتك . فقد أعيتنا والله هذه المشكلة .
وأحببنا أن نسألك فيها .

فتنحى الكندى وقال :

— أما ما ذكرتم من انتقاض البدن ، فإن الذى أخاف على بدنى منه
هو الدعة وقلة الحركة ، وهل رأيتم أصبح أبداناً من الحمالين والطوافين .
ولربما أقمت فى المنزل بعض الأمر فأكثر الصعود والنزول خوفاً من قلة
الحركة . وأما التشاغل بالبعيد عن القريب فأنا لا أعرض للبعيد حتى
أفرغ من القريب ، وأما ما ذكرتم من الزيادة فى الطعام فقد أيقنت نفسى
واطمأن قلبى على أنه ليس لنفسى عندى إلا ما لها ، وأنها إن حاسبتنى أيام
التعب حاسبتها أيام الراحة . وأما ما ذكرتم من تلقى الحمولة ومن مزاحمة
أهل السوق ومن التتر والجذب فأنا أقطع عرض السوق من قبل أن يقوم
أهل السوق لصلاتهم ، ثم يكون رجوعى على ظهر السوق ،
وأما ما ذكرتم من شأن النعل والسراويل فأنى من لدن خروجى من منزلى
إلى أن أقرب من باب صاحبى فإنما نعلى فى يدى وسراويلى فى كفى ..
فإذا صرت إليه لبستهما ، فإذا خرجت من عنده خلعتهما ، فهما فى ذلك
اليوم أودع أبداناً وأحسن حالاً . بقى الآن لكم مما ذكرتم شىء ؟

فقالوا جميعاً فى عجلة :

— لا ..

فأردف الكندى باسماء :

— ههنا واحدة تفى بجميع ما ذكرتم .

فقالوا جميعاً فى لهفة :

— ما هى ؟

— إذا علم المدين القريب ومن لى عليه ألوف الدنانير شدة مطالبته للمدين البعيد ومن ليس لى عليه إلا الدراهم ، أتى بحقه كاملاً ولم يطمع نفسه فى مالى . فهذا تدبير يجمع لى إلى رجوع مالى طول راحة بدنى . وليس من الحكمة أن أدع شيئاً من دين يطمع فى فضلة ما يبقى على الغرماء .

وسكت . فقالوا بأجمعهم فى صيحة إعجاب :

— ولا والله لا سألناك عن مشكلة أبدا .

وجاء وقت الطعام ، ووضع الغلام الخوان ، وقدم « مضيرة » من لحم الجدى واللبن الحامض والتوابل والأبزار ، تثنى على كرم أشعب وبنان وتشهد لهما بالسعة والرخاء ، فى قصة عظيمة يزل عنها الطرف بهاء ورواء ، فما أخذت من المائدة مكانها ، حتى قام الحلاق على قدميه ساخطاً لا عناء ، يسب آكلها وطابخها ، فظنه الحاضرون يمزح ، فإذا هو جاد فى الكلام وإذا هو يتنحى بعيداً تنحى السليم عن الأجرب ، فراهم أمرها وخافوا أن يمدوا إليها يدا ، فرفعوها فارتفعت معها قلوبهم وسافرت خلفها عيونهم . وتحلب لها فم الكندى وتلمظت لها شفتاه ، ولكنه أذعن على مضض ، وأقبل كما أقبل الآخرون على الحلاق يسألونه عن أمرها فتهد وقال :

— قصتى معها أطول من مصيبتى فيها !

وسكت ، فصاحوا به :

— تكلم !

فتردد ثم قال :

— أخاف لو حدثتكم بها ألا آمن من غضبكم وإضاعة وقتكم ..

فزاد بذلك رغبتهم فى الاستطلاع فقالوا له جميعا :

— تحدث .

فجلس وأطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال :

— منذ سنوات ثلاث دعانى حلاق من إخوانى الحلاقين ، ترك الحرفة

بعد أن أثرى وجمع الأموال ، إلى أكلة « مضيرة » . ولزمنى ملازمة

الظل إلى أن تركت حانوتى وزبائنى وأجبتة إليها ، وقمنا . فجعل طول

الطريق يثنى على زوجته ويفديها بمهجته ويصف حذقها فى صناعة

المضيرة وتأنقها فى طبخها ، ويقول :

— يا صاحبى لو رأيتها والخرقه فى وسطها وهى تدور فى المطبخ بين

القدور تنفث بفمها النار وتدق بيديها الأبرار ، ولو رأيت الدخان وقد

غبر فى ذلك الوجه الجميل ، لرأيت منظراً تحار فيه العيون . وأنا أعشقها

لأنها تعشقنى ، ومن سعادة المرء أن يرزق المساعدة من حليته ،

ولا سيما إذا كانت من طينته ، وهى ابنة عمى لحا . مدينتها مدينتى

وأرومتها أرومتى . ولكنها أوسع منى صدرا ، وأحسن خلقاً .

ومضى يحدثنى بصفات زوجته حتى انتهينا إلى الجهة التى يقيم فيها .

فقال :

— يا صاحبي ترى هذه الجهة هي أشرف موقع بالمدينة ، يتنافس
الأخيار في نزولها ولا يقطنها غير كل عظيم وإنما المرء بالجار . ودارى فى
وسطها كالنقطة فى الدائرة انظر إلى دارى وقل لى كم تقدر ثمنها . قله
تخمينا ..

قلت :

— الكثير ..

فقال :

— يا سبحان الله ! تقول الكثير فقط ؟

وتنهى ثم قال :

— سبحان من يعلم الأشياء !

وانتهينا إلى باب داره فقال :

— كم تقدر يا صاحبي ما أنفقت على هذا الباب ؟ أنفقت والله عليه
فوق الطاقة ، كيف ترى صنعه وشكله ؟ رأيت بالله نظيره ؟ انظر إلى
دقائق الصنعة فيه ، وتأمل حسن تعريجه فكأنما خط بالبركار ، ثم هذه
الحلقة فيه لقد اشتريتها فى سوق الطرائف من عمران الطرائفى بثلاثة
دنانير . وكم فيها من النحاس يا صاحبي ! فيها ستة أرتال ! بالله دورها ثم
أنقرها وأبصرها .

* * *

وقرعنا الباب ودخلنا الدهليز . فقال :

— عمرك الله يا دار ولا خربك يا جدار . تأمل بالله المعارج ، وتبين

دواخلها وخوارجها ، وسلنى كيف حصلت عليها ، وكم من حيلة احتلت لها . فلقد كان لى جار يكنى أبا سليمان ، يسكن هذه الدار ، وله من المال ما لا يسعه الخزن . فمات رحمه الله وخلف خلفاً أتلف المال بين الخمر والزمر ، وخشيت أن تذهب الدار فيما ذهب . ويفوتنى شراؤها فأتقطع عليها حسرات إلى يوم الممات ، فاحتلت حتى أقرضت صاحب الدار ما لا أحتاج إليه ، وتغافلت عن اقتضائه حتى كادت حاشية حاله ترق فسألته أن يجعل داره رهينة لدى ، ففعل . ثم صبرت عليه إلى أن أفلس وآلت إلى الدار بثمان بنخس . وأنا بحمد الله محظوظ . وحسبك يا صاحبى أنى كنت منذ ليال نائماً فى البيت مع من فيه إذ قرع علينا الباب . فقلت : من الطارق ؟ .. فإذا امرأة معها عقد لؤلؤ تعرضه للبيع فأخذته منها أخذة خلس واشتريته بثمان زهيد وسيكون له ربح وافر بعون الله تعالى . وإنما حدثتك بهذا الحديث لتعلم سعادة حظى . والسعادة تنبسط الماء من الحجارة . الله أكبر ، لا ينبئك أصدق من نفسك . ثم أنى اشتريت هذا الحصير فى المنادة وقد أخرج من دور آل ثراء ، وكنت أطلب مثله منذ زمن طويل فلا أجد . تأمل بالله دقته ولينه وصنعتة ولونه . وإن كنت سمعت بأبى عمران الحصىرى ، فهو عمله وله ابن يخلفه الآن فى حانوته ، لا يوجد أعلاق الحصر إلا عنده ، فبحياتى لا اشتريت الحصر إلا من دكانه . فاللؤم ناصح لإخوانه . ونعود إلى حديث المضيرة فقد حان وقت الظهر .. يا غلام الطست والماء ..

فقلت :

— الله أكبر ، ربما قرب الفرج .

وتقدم خادمه . فقال :

— ترى هذا الغلام ؟ إنه رومى الأصل ، عراقى النشء . تقدم

يا غلام ، وأحسر عن رأسك ، وانض عن ذراعك ، وأقبل وأدبر .

ففعل الخادم ذلك . وقال صاحب الدار :

— بالله سلنى من اشتراه ؟ اشتراه والله أبو معن من النخاس . يا غلام

ضع الطست وهات الإبريق .

فوضعه الغلام وأخذه المضيف وقلبه بين يديه وأدار فيه النظر ثم نقره

وقال :

— انظر إلى هذا النحاس الأصفر كأنه قطعة من الذهب ، نحاس

الشام وصنعة العراق . تأمل حسنه وسلنى متى اشتريته ؟ اشتريته والله

عام المجاعة . يا غلام .. الإبريق !

فقدمه . وأخذه رب البيت فقلبه بين يديه وقال :

— أنبوبة منه . لا يصلح هذا الإبريق إلا لهذا الطست ، يا غلام أرسل

الماء ، فقد حان وقت الطعام ! بالله ترى هذا الماء ما أصفاه ، أزرق كعين

السنور . وكأنه لسان الشمعة فى صفاء الدمعة . وهذا المنديل سلنى عن

قصته . فهو نسج جرجان ، وقع إلى فاشتريته . فالتذت امرأتى بعضه

سراويل واتخذت بعضه منديلا . دخل فى سراويلها عشرون ذراعاً .

وانتزعت انتزاعاً من يدها هذا القدر وأسلمته إلى المطرز حتى صنعه كما

تراه وطرزه . فادخرته للظراف من الأضياف أمثالك . يا غلام ، الخوان

والقصاع والطعام ، فقد كثر الكلام .
فأتى العبد بالخوان ، وقلبه صاحب البيت ، ونقره ، وعجمه
بأسنانه ، وقال :

— عمر الله بغداد فما أجود متاعها . تأمل بالله هذا الخوان وانظر إلى
خفة وزنه وصلابة عوده وحسن شكله .
فقلت له :

— هذا الشكل ، فمتى الأكل ؟
فقال :

— الآن . عجل يا غلام بالأكل ، لكن الخوان قوامه منه ..
فقنطت وقلت في نفسي :

— قد بقى الخبز وآلاته وصفاته والحنطة من أين اشتراها وكيف
اكترى لها جمالاً وفي أى رحى طحن وكيف عجن ونخبز ، وبقى الحطب
ومتى جلب وكيف صفف وجفف . وبقى الخباز ووصفه والدقيق
والخمير وشرحه ، بقى البقل وكيف قطف ونظف ، وبقيت المضيرة
كيف اشترى لحمها ووفى شحمها ونصب قدرها ودقت أبقارها حتى
أجيد طبخها وعقد مرقها ، وهذا خطب يطم . فقلت .

فقال : « أين تريد يا صاحبي ؟ » .

فقلت : « حاجة أقضيها » .

فقال :

— تريد كنيفاً أحسن من مصيف الأمير ويزرى بمقصورة الوزير ، قد

سطح سقفه وفرشت أرضه بالمرمر ، يمشى على أرضه الذباب فيزلق ،
وعليه باب من ساج وعاج ، مزدوجين أجمل ازدواج ، يتمنى الضيف
أن يأكل فيه ؟

فقلت له : « كل أنت من هذا الجراب ، لم يكن الكنيف في الحساب » .
وخرجت من الدار وجعلت أعدو ، وهو يتبعنى ويصيح بى :

— يا أبا الفرج ... المضيرة !

وظن الصبيان فى الطريق أن المضيرة لقب لى ، فصاحوا صياحه
فضجرت ورميت أحدهما بحجر ، فأصاب الحجر عمامة رجل عابر
وغاص فى هامته . فأخذت من صفع الناس بما طاب وخبث . وضربت
والله حتى نسيت اسمى . ثم حشرت إلى الحبس فأقمت عامين فى ذلك
النحس . وخرجت فنذرت ألا آكل مضيرة طول حياتى . فهل أنا فى ذا
يا أسيادى وإخوانى ظالم ؟

وسكت الحلاق . ونظر إلى الجالسين يمنا ويسرة فوجدهم ينفخون
ويتلمظون لا من الجوع ، بل من الغيظ . ولم يجدوا كلاما يقولونه له .
ولم ير أشعب جوابا يجيب به غير الإشارة إلى العبد والصياح فيه
قائلا : « علق هذا الحلاق من العقبين ، إلى أن نفرغ من العشاء ! » .
وأرجعوا « المضيرة » ، فعادت إليهم باردة منكمشة كالعجوز
الحيزبون ، فأكلوها وقد ذهب روائها ومضت لذتها فجعل الكندى
يمضع ويقول لأشعب :

— ألم أقل لك : وددت أنك بلغت بهذا الحلاق إلى أن تأتى على نفسا

(أشعب)

حيلة شيطانية

لبث أشعب وبنان على هذه الحال أياما ينفقان مما عندهما على طيب الطعام وجيد الشراب ، إلى أن أوشك ما جمعه أن ينضب ، ولحا شبح الفاقة والجوع يقترب ، فحدثتهما النفس أن يصنعا ههنا ما صنعا في عرفات ، ولكن على نسق آخر ، خوفا من سوء العاقبة . فبعث أشعب إلى الجارية « رشا » فحضرت وأعد هو وبنان منزلا في زقاق العطارين يشرف على السوق . وأوصيا الجارية أن تخطر بقدها المائس أمام المسجد إذا اجتمع الناس لصلاة العصر . فمضت وعلى وجهها خمار أسود تزهى من تحته عيناها كأنهما النجوم فما كادت تسير خطوات حتى سمعت خلفها من يهمس في أذنها :

قل للمليحة في الخمار الأسود :

ماذا فعلت بزاهد متعبد ؟

قد كان شمر للصلاة ثيابه

حتى خطرت له بباب المسجد

ردى عليه صلاته وصيامه

لا تقتليه ، بحق دين محمد !

فالتفتت ، فرأت رجلا ليس من أهل البلد نظيف الهيئة ، وقور الطلعة

يحد إليها النظر . فقالت له :

— اتبعنى ..

فقال لها : « إن شريطتى الحلال » .

فقالت له :

— قبحك الله ، ومن يريدك على حرام ؟

فخجل الرجل . وغلبته نفسه على رأيه فتبعها . ومشيا حتى دخلا

الزقاق وبلغا المنزل . وصعدت الجارية درجة وقالت للرجل :

— اصعد ..

فصعد .. فقالت له :

— إن لى وجهها أحسن من العافية ، مع صوت كصوت « ابن

سريح » وترنم « معبد » وتيه « ابن عائشة » أجمع لك هذا كله فى بدن

واحد بأشقر سليم .

فقال لها :

— وما أشقر سليم ؟

فقالت :

— بدينار واحد ، يومك . وليلتك . فإذا أقمت جعلت الدينار

صداقا وتزويجا صحيحا .

فقال الرجل :

لك ذلك إذا جمع لى ما ذكرت .

فأجلسته فى صدر الدار وخلعت خمارها . ورأى الرجل جماها ،

فذهب عقله . وقامت الجارية فقال لها :

— إلى أين جعلت فداك !

— ألبس وأتھياً ..

فصاح الرجل :

— بالله لا تمسى غمرا ولا طيبا ، فحسبك بدلالك وعطرك ..

فابتسمت له ابتسامة أجهزت عليه ، وذهبت ، وجاء الغلام ، فحيا

الرجل أجمل تحية ، وأسر له فى أذنه :

— أخبرتك شريطتها ؟

فقال الرجل :

— لا والله .. ما شريطتها ؟

فقال الخادم :

— لعلها نسيت تخبرك . هى والله أفتك من « عمرو بن معد يكرب »

وأشجع من « ربيعة بن مكرم » ولست بواصل إليها حتى تسكر وتغلب

على عقلها ، فإذا بلغت ذلك الحال ففيها مطمع .

فقال الرجل :

— ما أهون ذلك وأسهله !

فأردف الخادم :

— ثم شئ آخر ..

— ما هو ؟ ..

— اعلم أنك لن تصل إليها حتى تتجرد لها وتراك مجردا مقبلا مدبرا .

فقال الرجل :

— وهذا أيضا أفعله .

وتركه الغلام ومضى . وأقبلت الجارية تموج ظرفاً وتميس لطفماً

فقالت :

— هلم دينارك !

فأخرج الرجل دينارا نبذه إليها فصفقت فأجابها العبد . فقالت له :

— قل لأبي الحسن وأبي الحسين هلم الساعة .

ومضى قليل . فإذا شيخان خاضبان نبيلان ، هما أشعب وبنان ، قد أقبلا فصعدا . فقصت الجارية عليهما القصة . وغمرت لهما بعينها غمزة خفيفة لم يلحظها الرجل فقام أحدهما فخطب وأجاب الآخر . ودعيا الرجل فأقر بالتزويج وأقرت الجارية . ودعا الشاهدان بالبركة ، ثم نهضا وخرجا واستحيى الرجل أن يحمل المرأة شيئاً من المؤونة فأخرج ديناراً آخر دفعه إليها وقال :

— اجعلى هذا لطيبك ..

فقالت له :

— يا أخى . لست ممن يمس طيباً لرجل ، إنما اتطيب لنفس إذا

خلوت .

فقال لها :

— فاجعليه إذن لعشائنا الليلة .

قالت :

— أما هذا فنعم ..

ونَهَضْتُ فَأَمَرْتُ بِإِصْلَاحِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ . ثُمَّ عَادَتْ قَبْلَ الْمَسَاءِ ،
فَدَعَتْ بِالْخَوَانِ وَالنَّبِيدِ . فَتَعَشَّيَا وَشَرَبَا . وَأَمْسَكْتُ بِالْعُودِ وَانْدَفَعْتُ
تَغْنَى :

راحوا يصيدون الطِّبَاءَ وإنسى
لأرى تصيدها على حرامها
أعزز على بأن أروع شبهها
أو أن تذوق على يدى حمامها
فكاد الرجل يحن سرورا وطربا . وقال لها :
— جعلت فداك ، من يغنى هذا ؟

قالت :

— اشترك فيه جماعة ، هو لمعبد ، وتغنى به ابن سريج وابن عائشة .
وجعل الرجل يحتال لتدنو منه فتأبى عليه ، ثم غنت بصوت لم يفهمه
للشقاء الذى كتب عليه :

كأنى بالمجرد قد علتـه
نعال القوم أو خشب السوارى

فقال لها :

— جعلت فداك ، ما أفهم هذا البيت ، ولا أحسبه مما يتغنى به !
قالت :
— أنا أول من تغنى به .

فقال :

— إنما هو بيت عابر لا ثان له ؟

قالت :

— معه آخر ليس هذا وقته . هو آخر ما أتغنى به .

فسكت الرجل ، وجعل لا ينازعها في شيء لإجلالها ، إلى أن أذنت
العشاء ، فوضعت عودها . فقام فصلى العشاء ، وما يدرى كم صلى
عجلة وشوقا .

وفرغ من صلاته فأقبل عليها يقول :

— تأذنين جعلت فداك في الدنو منك !

فقالت :

— تجرد !

وأشارت إلى ثيابها كأنها تريد أن تتجرد ، فكاد الرجل يشق ثيابه
عجلة للخروج منها . فتجرد ، وقام بين يديها ، فقالت له :

— امض إلى زاوية البيت ، وأقبل وأدبر ، حتى أراك مقبلا ومدبرا !
وإذا في زاوية البيت حصير في الغرفة على الطريق فخطر الرجل عليه .
وإذا تحته خرق إلى السوق . وإذا الرجل يجد نفسه في السوق مجردا عاريا
كما ولدته أمه وإذا الشيخان الشاهدان « أشعب وبنان » قد أعدا نعالهما
على قفاه ، واستعانا بأهل السوق . فما أبقوا فيه عظما صحيحا . وبينما
الرجل يضرب بنعال مخصوفة ولئيد مشدودة ، إذا صوت تغنى به الجارية
من فوق البيت :

— ٨٨ —

ولو علم المجرد ما أردنا
لحاربنا المجرد بالصحرارى
فقال الرجل فى نفسه :
— هذا والله وقت هذا البيت .

أمعن أشعب وبنان فى هذا السبيل بمثل هذه الأساليب ، حتى ضجت
الناس وعمت الشكوى . وبلغ الأمر والى المدينة وكان شديد الورع ،
صارم الخلق ، عبوس الوجه . فأرسل فى طلب هذين المفسدين ، وأمر
بهما للفور فجردا من ثيابهما وضربا ثلاثين سوطاً . وأمر بأموالهما الحرام
فضمت إلى بيت المال .

وتحمل أشعب وبنان الضرب . ولكنهما لم يتحملا كارثة ذهاب
المال . فصاح أشعب يستأذن على الوالى فأذن له . فبكى بين يديه
وتباكى وقال :

— أصلحك الله ! أنجرد من ثيابنا ومن مالنا فى يوم واحد ؟
فقال له الوالى :

— يا عدو الله ! لقد كنتما تجردان الناس من هذا وذاك فى ليلة واحدة .
ورأى أشعب ألا حيلة له مع هذا الوالى إلا أن يضحكه ، فلعله إن
ضحك عفا . فجعل يقص عليه طريف النوادر والوالى فى إطراقه وتقطيعه
وعبوسه لا يعبر وجهه خيال ابتسامة . وسكت أشعب قانطاً .
فرفع الوالى رأسه وقال له :

— لو أنك حفظت الحديث حفظك هذه النوادر لكان أولى بك .

فقال أشعب : « قد فعلت » .

فقال له الوالى : « أسمعنى ما حفظت من الحديث » .

فتنحى أشعب ثم قال :

— حدثنى نافع ، عن ابن عمر ، عن النبى ﷺ قال :

من كان فيه خصلتان كتب عند الله خالصا مخلصا .

فقال له الوالى :

— هذا حديث حسن ، فما هاتان الخصلتان ؟

فحار أشعب وتفكر لحظة ثم قال :

— نسى نافع واحدة .

فقال الوالى : « والأخرى ؟ » .

فقال أشعب :

— والأخرى ... نسيته أنا .

فلم يجب الوالى ... ولم يزد على أن أمر بأشعب فضرب ثلاثين

أخرى ...

فى العرس

جعل أشعب وبنان يطوفان فى الأسواق متجردين من مالهما وقد
أعياهما الجوع وضائق بهما الحياة . ولم يبق لهما مما سلف ، غير ذكرى
تعاود أشعب فى كل ليلة . فيرفع عقيرته صائحا :

شربنا كئوس السعد حتى كأننا
ملوك لهم فى كل ناحية وفر
فلما اعتلت شمس النهار رأيتنا
تخلى الغنى عنا وعاودنا الفقر

وأتعبتهما كثرة المشى ، فقال بنان :

— ما لنا نمشى فى غير حاجة ؟

فقال أشعب :

— صدقت . والله لقد أنسانا العز وصايا أساتذة التطفيل رحمهم

الله ، لقد جاء فى بعض نصائحهم الذهبية : « لا تمش إلى موضع لا تمضغ
فيه شيئا » .

فقال بنان :

— لو عرفنا موضع المضغ ...

فأجاب أشعب :

— لمشيئا إليه دهرأ .

وتنهذ الرجلان ، ومضيا في السير ، وإذا الفرج يلوح لهما عن كشب في هيئة عرس في طرف المدينة . قد نمت أنواره عن عظم شأنه فصاحا معا صيحة واحدة . وركضا إليه . ولكنهما وجدا دونهما بابا قد أرتج وبوابا وقاحا غليظ الطبع يسب من لا يعرف من القادمين ويدفع بيده في صدورهم فعلموا ألا سبيل إلى الدخول إلا بالحيلة . فانصرف كل منهما يدبر لنفسه أمرا .

وانطلق أشعب من ساعته يسأل عن صاحب العرس إن كان له ولد غائب أو شريك في سفر ، فعلم أن له ولدا في اليمن هو أخ للعروس فأخذ في الحال ورقة بيضاء فطواها وختمها وليس في بطنها شيء وجعل العنوان « من الأخ إلى العروس » ثم أقبل متدللا . فققع الباب قعقة شديدة ، فقال له البواب :

— من أنت ؟

فقال أشعب :

— أنا رسول من عند أخى العروس .

ففتح له الباب ، وتلقاه صاحب البيت فرحاً قائلاً له :

— كيف فارقت ولدى ؟

فقال أشعب :

— بأحسن حال ، وما أقدر أن أكلمك من الجوع !

فأمر صاحب العرس بالطعام فقدم إلى أشعب ، فجعل يأكل ، ولم يطق صاحب الدار انتظارا فقال :

— أما معك رسالة ؟

فقال أشعب :

— نعم ..

ودفع إليه بالورقة فأخذها الرجل فوجد ختمها طريا ، فقال :

— أرى الطين طريا ؟

فأجاب أشعب وفمه منتفخ بالطعام :

— نعم ، وأعجب من هذا أنه ليس في بطن الرسالة ولا حرف واحد

لأن ولدك من العجلة لم يكتب فيه شيئا .

فنظر إليه صاحب العرس شذرا ، وقال له :

— أطفيلي أنت ؟

فأجاب أشعب وهو يعضغ :

— نعم ، أصلحك الله !

فقال الرجل :

— كل ، لا هناك الله !

* * *

أما بنان فقد حار ماذا يصنع للدخول . ثم تذكر أن في يده خاتما بقي

له من أيام العز . فذهب من فوره إلى بقال فرهه عنده على عشرة أقداح

وجاء إلى باب العرس يصيح :

— يا بواب افتح لى !

— من أنت ؟

— أراك لا تعرفنى .. أنا الذى بعثونى اشترى لهم الأقداح ..

ففتح له البواب ، فدخل بنان فأكل هو أيضا وشرب مع القوم ، حتى فرغ ، فقام وأخذ الأقداح وخرج فردها على البقال واسترد خاتمه .

* * *

لم تكن الحيلة تنقص أشعب وبنان إنما الذى كان ينقصهما هو العلم بموضع الولايم والأعراس فإن دون ذلك البحث الطويل والجهد الكثير ولم يفتح الله عليهما بحل لهذه المعضلة . إلى أن خطر على بال بنان يوما خاطر فقال لصاحبه :

— لا يعرف مكان الولايم والأعراس غير غلمان الأزقة والطرق .
فإنك لتراهم منتشرين فى كل مكان . ولهم علم بكل شأن . ولعل من بين عيالك من تشرده مثلهم . فأوص الأشد من أولادك أن يأتينا بالأخبار .

وكان الحق فيما قال ، إذ لم يمض يوم حتى جاء ابن أشعب يجرى ، فأخبرهما أنه مر بباب قوم عندهم وليمة . فأسرعوا ثلاثتهم إلى تلك الدار ودخلوا . وإذا صاحب البيت قد وضع سلما ، فكلما رأى شخصا لا يعرفه قال له « اصعد يا أبى » . فصعد بنان وأشعب وابنه ، فوجدوا أنفسهم فى غرفة مفروشة . وتوالى الصعود إلى هذه الغرفة حتى وافى فيها ثلاثة عشر طفيليا ، ثم رفع السلم ، ووضعت الموائد فى أسفل الدار ،

وبقى أشعب ومن معه فى العلو ينظرون متحيرين فقال بعضهم :

— ما مر بنا مثل هذا قط ...

فنظر أشعب إلى الحاضرين مليا وقال :

— يا فتیان ما صناعتکم ؟

فقالوا :

— الطفيلية .

فقال لهم :

— ما عندكم فى هذا الأمر الذى وقعنا فيه ؟

فأجابوا :

— ما عندنا فيه حيلة !

فقال لهم :

— وإذا احتلت لكم حتى تأكلوا وتنزلوا ، تقرون لى إنى أعلمكم

بالتطفيل ؟

فنظروا إليه وقالوا :

— ومن تكون أنت بالله ؟

فقال :

— أنا أشعب !

فقالوا على الفور :

— قد أقررنا لك قبل أن تحتال لنا .

فقام أشعب ، وأطل على صاحب الدار وضيوفه يأكلون ، فصاح به :

— يا صاحب البيت !

فرّج الرجل رأسه قائلاً :

— ما لك ؟

فقال أشعب :

— أيهما أحب إليك ، تصعد إلينا بخوان كبير نأكل وننزل ، أو أرمى
بنفسي رأسيا من هذا العلو فيخرج من دارك قتيل ويصير عرسك مأتما ؟!
ثم جعل أشعب يجر سراويله ، كأنه يريد أن يعدو ويرمي بنفسه ..
فجعل صاحب الدار يقول :

— اصبر ، ويلك ، لا تفعل !

ثم أصدع إليهم خواناً ، انقضوا عليه انقضاض جوارح الطير ..
وجعل ابن أشعب يأكل ، ثم يشرب ، ثم يأكل .. حتى لم يبق شيء
يؤكل فقاموا ، وعند ذاك .. انتحى أشعب بابنه ناحية ولطمه هامساً :
— لو جعلت مكان كأس الماء الذي شربته لقيمت .
فأجاب الابن على الفور .

— إن كأس الماء يوسع محلاً للقم .

فتأمل أشعب كلام ابنه لحظة ، ثم صفعه ثانية وقال :

— لم تنهني إلى ذلك قبل جلوسنا إلى الخوان ؟

* * *

منذ ذلك اليوم جعل نفر من أولئك الطفيلين الثلاثة عشر يختلفون إلى
أشعب ، ويجلسون حوله في طرف من أطراف السوق ، يستمعون إلى

حديثه ويتلقون نصحه ، ولزمه واحد من هؤلاء ملازمة الظل ، وجعل أحياناً يحمل إلى أشعب بعض الطعام ويتلطف له ويطرضاه ليأخذ عنه بعض أساليب تلك الصناعة ، وكان يلح عليه إلحاحاً ينم عن شدة تعلقه بالتطفيل ، وجاء هذا التلميذ إلى أستاذه ذلك المساء بطبق فيه تمر وقعد بين يديه كما يقعد كل يوم قائلًا له :

— انصحني !

فوضع أشعب الطبق في حجره وطفق يأكل .. ثم تنحنح وقال :
— إذا دخلت عرساً ، فلا تتلفت تلفت المريب ، وتخير المجالس ، وإن كان العرس كثير الزحام فلتمض ، ولا تنظر في عيون الناس ، ليظن أهل المرأة ، أنك من أهل الرجل ، ويظن أهل الرجل أنك من أهل المرأة ، فإن كان البواب غليظاً وقاحاً فتبدأ به وتأمره وتنهاه من غير أن تعنف عليه ولكن بين النصيحة والإدلال ...

وسكت أشعب واشتغل بالتمر ، فقال التلميذ : زدني .
فقال :

— إذا وجدت الطعام فكل منه أكل من لم يره قط ، وتزود منه زاد من لا يراه أبداً .

— زدني !

— وإذا دعيت إلى وليمة إن شاء الله ، فإياك ثم إياك أن تتأخر إلى آخر الوقت ، بل استخر الله وكن من السابق وأول من يوافي ، واعلم أنه ليس يجيء في أول الأوقات إلا جلة الناس وسراتهم ، فعودك مع مثل هؤلاء

فائدة ، وأنت معهم آمن مطمئن مسرور ، تسمع كل حديث حسن
وخبر ظريف ، وأنت ريح البدن واسع الموضع طيب المكان ، فالزم هذه
الطريقة لا يزايل سوادك بياضهم فتهلك ، فهؤلاء هم الذين يعرفون حقك
ويكرمونك ويجلونك ويحلفون بحياتك وتعرف السرور في وجوههم ،
فصلوات الله على هؤلاء وعلى من ولدهم .

* * *

وقعودك على أول مائدة فيه خصال كثيرة محمودة ، اعلم يا مغفل
إنك أول من يغسل يده ، والخوان بين يديك ، وأول القنينة أنت
تشربه ، والبقل الجيد يوضع قدامك ، وأول من يتبخر أنت ، ثم أنك
تأكل رؤوس القدور ، وكل شيء كثير ، والقدور ملأى ، والماء بارد ،
والخباز نشيط ، ورب المنزل فرح مسرور ، وكل شيء من أمرك
مستور ، أما إذا تأخرت أو تكاسلت إلى آخر الوقت فقد عطبت
وهلكت ، فإنك تصادف الطعام بارداً وهو فضلات القدور ، والرقاق
بقايا عجيين ، فقد استعملوا الجيد ، والماء سخناً ، وصاحب الوليمة
ضجراً متبرماً ، ذلك أنه لا يقعد على آخر مائدة إلاضعفى الجيران
ومساكين المكان والقوام ، فإذا قال لهم صاحب الدار : « قوموا ،
سارعوا إلى الخوان » نهضوا مزدحمين فانبطحوا في ميدان المضغ ورفعوا
قناع الحشمة وألصقوا الأكتاف بالأكتاف كأنها بنيان مرصوص ،
يأكلون ميمنة وميسرة وتدور أيديهم على الخوان شرقياً وغربياً
وتسمع للقم في حلوقهم معمعة ، فإن قدم لهم جداء وحملان فإنما
(أشعب)

يقدم الجدى أضلاعا بلا لحم ، فوقه جلد وحوله « نخس » و« هندبا »
كأنه كوخ ناطور قد وقع خشبه وبقى القصب قائماً . فماذا يكون حال
من يأكل مع هؤلاء ؟ إنه يخرج من العرس وما معه من العرس إلا شم
الطعام وتمشيش العظام ...

وسكت أشعب . فقال صاحبه :

— زدنى ..

فقال أشعب :

— وإذا قمت من المائدة وقد تغديت ، فاقعد في وسط الدار يضربك
الهواء ، وادع بالشراب ، فإن أتوك بنبيذ فهو أحب إلى ، رطلا
أو رطلين ، ولا تصب فيه ماء ، وإن حلفوا عليك فأدخلوك البيت فلا تقعد
في الصدر فإن القعود في الصدر قعود مغن أو مخرف ، وإن كان في البيت
فاكهة كثيرة فاجذب منها إليك ، إذ لا تأمن أن تذهب وتبقى أنت
بلا شيء ، ولا تكن أنت الساقى ، وكن ذنباً ولا تكن رأساً ، وإن كان في
المجلس مغنية أو جارية حسنة الوجه فاتق الله في نفسك ولا تولع بواحدة
منهما والزم العافية ، وإذا دار النبيذ في الأقداح فإياك أن تسكر وأن يرى
القوم منك زلة أو كلمة غلط فتخرج وقد انتهكت سترك عندهم ، فإنك
إن خلطت وولعت ومزحت فإنما هو صفع كله وعداوة بين جيرانك .
اشرب خمسة أقداح أو ستة أقداح أو سبعة أقداح ولا تسكر ، فإن
خشيت على نفسك فقم وأنت صحيح وعقلك معك ، وإنما شرحت
لك كل هذا تفصيلاً رغبة في إسداء النصيحة ، فافهم تعلم ، وتعلم

بأدب ، متعك الله بسعة الصدر وطيب الأكل والصبر على المضغ ، إنها دعوة مغفل عنها .

* * *

وسكت أشعب ، وسكت تلميذه ، وإذا جماعة من أصحابهما الطفيليين قد أقبلوا يتصايحون مهللين فعلم أشعب أنها وليمة ، فوثب على قدميه وقام التلميذ لقيامه ، وصاح أشعب في الجماعة :

— أين ؟

فقالوا :

— اتبعنا ..

فشمر عن ساقيه وقال لهم :

— بل اتبعوني أنتم !

فساروا في أثره ، ومشى هو على رأسهم ، ينظر إلى السماء ، ويدعو الله قائلا :

— اللهم لا تجعل البواب لكازا في الصدور ، دفاعا في الظهر ،

طراحا للقلانس ، هب لنا رأفته وبشره وسهل لنا إذنه !

وبلغوا بابا كبيرا قد رش الطريق أمامه وكنس ، فاعتدل أشعب ، وانتفخ في ثيابه ، وشمخ بأنفه وسار متهاديا متعاليا متباطئا ، ودخل غير ناظر إلى البواب ، فأفسح له البواب غير مجترئ على اعتراضه ، وقد ظن أنه ذو مقام ، وتبعه صبياناه وهم يشيرون إليه ، وينظرون إلى البواب كأنهم يقولون له :

— نحن أصحابه وخلانہ .

واستجاب الله دعاء أشعب ، فيسر له الدخول ، وما شعر أن قدميه في الدار هو وأصحابه حتى أسرع فجلس وأجلسهم حوله ... ودعى بالطعام ، وحضرت الموائد ، وكان كل جماعة على مائدة لكثرة الناس ، ونظر أشعب إلى مائدة شهية توضع أمامهم ، فالتفت إلى أصحابه وقال لهم :

— افتحوا أفواهكم ، وأقيموا أعناقكم ، وأجيدوا اللف ، واشرعوا الأكف ، ولا تمضغوا مضغ المتعللين الشباع المتخمين ، واذكروا سوء المنقلب وخيبة المضطرب !

وشمر عن ساعده ، وإذا تلميذه قد تعلق بكمه قائلاً له :

— انصحنى !

فنظر إليه شذراً ، فليس هذا وقت النصائح ، والكلام الساعة يفوت عليه المنفعة ، وأية نصيحة يطلبها هذا أكثر من وجود الطعام ذاته بين يديه ؟ ولكنه عاد فتذكر هدايا صبيه وأطباقه في أوقات العسر والمحنة فتلطف له وقال :

— انظر إليّ ولا تخالفني على كل ما أقول !

وجاءوهم بقصعة عليها « سمدان » ، فقال أشعب لتلميذه :

— كل من الأحمر ، فإن فيه طعمين : طعم السكر ، وطعم الزعفران .

ولم يدعه يأكل غيره ، ثم أتوهم « بالهريسة » فقال أشعب لصبيه :

— كل منها لقمة أو لقمتين أو ثلاثا .
فأكل التلميذ القدر الذى أمر به ، ولم يزد ، وجاءوهم « بالزيرباج »
الأحمر .

فقال أشعب :

— كل لقمة أو لقمتين .
ثم أتوهم بالقلايا اليابسة فقال :
— لا تأكل إلا لقمة أو لقمتين ولا تكثر ، وأولع بهذا الخبز اليابس
الذى فى القلية !

ثم جاءوهم « بالبقلية » فقال له :

— كل لقمة أو لقمتين .
ثم أتوهم بالشواء ، فقال له :
— لا تأكل منه شيئا وأبق نفسك ، فإننا فى كل يوم نصيب الشواء
« بدائق » يقوم مقام هذا ويكفيك .

ثم جاءوهم « بالفالودج » وكان كثيرا شبيها بالصومعة ، فقال
لتلميذه :

— إيت من تحت حتى ينهار ، وكل وأكثر ، فإنك لا ترى هذا فى كل
يوم .

ثم أحضروا لهم « اللوزينج » فقال له :

— أزوج وثلاث ، فإن مت فى هذا مت شهيدا !

ثم أتوهم بطبق عليه دجاج مسمن مشوى ، فهوى عليه وأكل منه .

اثنتين أو ثلاثا وقال لصاحبه :

— كل ولا تقصر ، فإن قيمة هذه ثلاثة دنانير ، فلا تأكل إلا ماله قيمة !

ولبت أشعب وأصحابه على هذه الحال ، وقد شغلهم أمر بطونهم عن مائدة عظيمة في ناحية من المكان قد وضعت أمام والى المدينة ، ولم يفتن أشعب إلى وجود والى ، ولكن والى فطن إليه ، وعرفه ، ولكنه كتم ذلك ، ومال إلى صاحب البيت وقال له :

— من صاحب القلنسوة الطويلة والطيلسان الأخضر !

فقال صاحب الدار :

— أصلح الله الأمير ، هذا رجل يقال له أشعب ، يشهد هذه الولائم دعى أم لم يدع .

فقال والى :

— إذا أكل جئنى به .

وفرع الناس من الطعام ، ورفعت الموائد ، فأسرع صاحب البيت إلى أشعب وأحضره إلى والى ، فلما صار بين يديه ، قال له والى :

— هل دعاك أحد إلى هذه الوليمة ؟

فوقع أشعب في الحيرة وقال :

— لا ، أصلحك الله !

فقال والى :

— ألا تعلم أن من جاء إلى طعام لم يدع إليه دخل سارقا وأكل حراما ؟

فقال أشعب :

— لا والله ما أكلت إلا حلالا .

فنظر إليه الوالى دهشا :

— كيف ذلك ؟

فأجاب أشعب :

— أليس يقول صاحب الوليمة للخباز : « زد فى كل شىء ؟ » وإذا أراد إن يطعم مائة قدر لمائة وعشرين وهو يقول : « قد نجيئنا من نريد ومن لا نريد ؟! » ، فأنا ممن لا يريد .

فابتسم الوالى وأعجبه الجواب وقال لأشعب .

— لقد اقتصصنا منك فيما مضى ، ذلك حق المسلمين ولكن اليوم

سلنى حاجتك ؟

فقال أشعب :

— أظان الله بقاء الأمير ، حاجتى : تكتب لى منشورا لا يدخل على أحد فى هذه الصناعة إلا ويدى عليه مطلقة .

فضحك الوالى وهمس فى أذن صاحب الوليمة ثم أمر لأشعب بهدية ، وأمر صاحب الوليمة له أيضا بهدية ، فخرج أشعب بأطباق من كل لون ...

ضيف ثقيل

لبث أشعب أياماً يسير في الأسواق في غير شيء ، ينتظر أن يوافيه أحد
بخبز عرس أو وليمة وهو ينشد ويغنى :

كل يوم أدور في عرصّة التدار

أشم القتار شم الذباب

فإذا ما رأيت آثار عرس

أو دخان أو دعوة الأصحاب

لم أعرج دون التقحم لا أرهب

سباً أو لكسزة البواب

وطال انتظاره ، ووقف على رجل يعمل طبقاً من الخيزران فقال له :

— أسألك بالله أن توسعه قليلاً وأن تزيد فيه طوقاً أو طوقين ..

فرفع الخيزراني رأسه وقال له :

— وما غرضك من ذلك ؟ أتريد أن تشتريه ؟

فقال أشعب :

— لا ، ولكن ربما اشتراه شخص يهدي إليّ فيه شيئاً ذات يوم ...

ثم تركه ومشى . فرأى رجلين يتهامسان ويتساران في طرف السوق ..

فوقف على مقربة منهما ينظر إليهما ، وإذا تلميذه قد أقبل يقول له :

- لقد بحثت عنك في مجلسك في السوق .
فقال له أشعب على عجل : « أوليمة ؟ » .
— لا .. ولكنه الشوق إلى حديثك ..
فأشاح أشعب بوجهه عنه . وعاد إلى النظر في وجه الرجلين
المتهامسين ، حتى افترقا وذهبا . فقال له تلميذه :
— أتعرفهما ؟
فقال أشعب وهو ينصرف خائباً مع صاحبه :
— لا ، ولكنى ما رأيت اثنين يتساران إلا ظننتهما يأمران لى بشيء .
وأطرق أشعب لحظة ، ثم رفع رأسه وقال لصاحبه :
— كأنى بك لا تريد أن أزيدك في النصح ؟
فنظر إليه تلميذه :
— لماذا ؟
فقال أشعب متخائلاً :
— ذلك إنى أرى أطباقك قد انقطعت .
فقال الرجل :
— ليس عندي الآن ما يهدى .
فقال أشعب :
— أوليس عندك ما يؤكل ؟
فأجاب الرجل :
— إذا شئت فإن دارى دارك . فأنت ليس منك حشمة .

وقاد الرجل أشعب إلى بيته وأنزله ضيفاً عليه . ودخل على امرأته فأوصاها أن تعد لأشعب عشاء طيباً . وأكل أشعب . ثم نظر في الدار وقال :

— عجباً ! أرى أنك من استواء الحال على قدر تحمد الله عليه .
فما شأنك وصناعة التطفيل ؟
فقال الرجل :

— لقد علقتها ولا طاقة لي بتركها .
فقال أشعب :
— لو أضفتني عندك أياماً أنصحك ، لما تركتك إلا وقد حذقتها حذفاً عظيماً .

* * *

مكث أشعب في دار الرجل أياماً طويلة حتى ضجر وضجرت امرأته فقالت المرأة لزوجها ذات ليلة :

— يبقى إلى متى ؟
— كيف لنا أن نعلم مقدار مقامه ؟
فقالت المرأة بعد تفكير :
— أنا أجيئك بالخبر .

فقال زوجها :
— كيف تستطيعين ؟
فقالت :

— ألق بينى وبينك شراً ونشحاكم إليه وأجاذبه الحديث .
ونفضا من ساعتها فتشاجرا وتظاهرا بالغضب والخصومة ،
وانطلقت المرأة إلى أشعب تقول له :
— بالذى يبارك لك فى ذهابك غداً . أينا أظلم ؟
فقال أشعب :

— والذى يبارك لى فى مقامى عندكم شهراً ، ما أعلم !
فأدركت المرأة وأدرك زوجها أن أشعب يطمع فى طول المقام .
فسقط فى أيديهما . ولم يعلما ما يصنعان . واغتاز الرجل وفكر حتى
اهتدى إلى حيلة ، فقال لامرأته :

— إذا كان غداً فإنى أقول له : « كم ذراعاً تقفز ؟ » فأقفر أنا من العتبة
إلى الدار ، فإذا قفز هو فأغلقى خلفه ...

وكان الغد ، فأحكما التدبير ، وجعل الرجل يحتال فى الحديث مع
أشعب حتى قال له :

— كيف قفزك ؟

فقال أشعب :

— جيد .

فقام الرجل لساعته فوثب من داخل منزله إلى خارج الدار أذرعاً وقال
لأشعب :

— ثب !

فنهض أشعب ووثب لا إلى الخارج ، بل إلى داخل الدار ذراعين .

فوجم الرجل ، وقال لأشعب :

— عجباً ! أنا وثبت إلى خارج الدار أذرعاً ، وأنت وثبت إلى داخل

الباب ذراعين ؟!

فقال أشعب من فوره :

— ذراعين إلى داخل خير من أربعة إلى « برا » !

* * *

انفض الناس عن أشعب آخر الأمر ، وهرب منه تلاميذه ومريدوه
فقد أيقنوا أنه قد انتهى إلى الوقوع على منازلهم وتطبيق أصول التطفيل على
موائدهم ، فلبث أشعب أياماً وحيداً حزيناً لا يجد أنيساً ولا رفيقاً ،
ولا يظفر بغداء ولا بعشاء . وخطر على باله صديقه بنان ، ولم يدر أين
اختفى . فخرج يبحث عنه حتى قنط من الاهتداء إليه ، فقعد في أول
السوق يفكر في أمر غده ، وإذا بينان قد أقبل يحمل قوساً ونشاباً ويجر
كلباً ، فما رآه أشعب حتى صاح به :

— أين كنت ؟ أخزأك الله !

فقال بنان :

— في الصيد . خييك الله !

— الصيد !

— نعم ، صيد الطير والظباء . إنه لعمل أجدى عليك من هذا القعود

تنتظر ما لا يجيء ، قم معي إلى الرزق الحلال ، تستمتع بالصيد الشهى
واللحم الطرى والهواء النقي ...

فنظر أشعب إلى ما في يد صاحبه وقال :

— وأين لك بالقوس والنشاب ؟

— بعت خاتمي واشتريت كل ما ترى .

— وأنا ماذا أصنع ؟

— اصنع مثل ما صنعت أنا .

— ليس عندي شيء يباع .

— أوليس عند امرأتك أو عيالك شيء ؟

فنهض أشعب لوقته ، وقال لبنان :

— انتظر ها هنا حتى أعود .

ومشى إلى بيته ، وأشعب لا يذكر بيته إلا يوم تضيق به الدنيا ،

فصادف الكندي بالباب ...

فما رآه الكندي حتى خف إليه وعانقه عناق المشتاق وقال له في

صوت العتاب :

— ألا عدتني وقد كنت مريضاً ؟

فقال أشعب :

— جعلت فداك ، متى مرضت ؟

فقال الكندي :

— بعد أربعين يوماً من تاريخ اليوم الذي أهديتك فيه القميص ..

فقال أشعب وهو يحسب عدد الأيام في نفسه :

— بعد أربعين يوماً من تاريخ البعثة بالقميص ! أى منذ متى عا

التحقيق ؟ إن هذا التاريخ والله ولا التاريخ القبطى !

ثم ترك الحساب والتفت إلى الكندى قائلاً :

— الحمد لله على كل حال .. إذ رأيتك وقد رد الله إليك العافية .

ورأى أشعب أن ينتفع بهذا الشوق والود . وحدثته نفسه إن يفضى

إلى الكندى بما جاء له . فجلس إلى جواره وتنحنح وقال :

— لى إليك حاجة .

فقال الكندى على عجل :

— ولى إليك أنا أيضاً حاجة .

فقال أشعب واجماً :

— وما حاجتك ؟

فقال الكندى :

— لست أذكرها لك حتى تضمن لى قضاءها .

فقال أشعب :

— نعم .

— حاجتى أن لا تسألنى هذه الحاجة .

فقال أشعب :

— إنك لا تدري ما هى .

— بلى . قد دريت .

— فما هى ؟

فقال الكندى :

— هي حاجة ، وليس يكون الشيء حاجة إلا وهي تخرج إلى شيء من الكلفة .

فقال أشعب متخابثاً :

— هذا حق . ولكن ... أنت خير من يتكلف لي . وقد جئتك أسألك أن تسلفني وتؤخرني ...

فقال الكندي :

— هاتان حاجتان .

فقال أشعب :

— نعم .

فقال الكندي :

— وإذا قضيت لك إحداهما ؟

فقال أشعب من فوره :

— رضيت .

فقال الكندي :

— أنا أؤخرك ما شئت ولا أسلفك .

فيئس أشعب منه ، ولم ير في الكلام معه غير إنفاق الوقت في غير طائل ، فقام يريد الذهاب .

فتفكر الكندي لحظة ثم صاح به :

— والله لا تنصرف خائباً .

فوقف أشعب دهشاً . ومضى الكندي يقول :

— أما الدرهم فأنت تعلم أن ليس من عادتي إخراجها . فهو متى ألقى
في الكيس سكن على اسم الله فلا يهان ولا يذل ولا يزعج . أما إذا شئت
فإني أهدي إليك قربة من عسل الرطب ، جاءتنى هدية من البصرة ،
فبعها إن أردت واقض حاجتك !

فعجب أشعب ، ولم يصدق أذنه ، وأنكر ذلك من مذهب
الكندي ، ولم يعرف جهة تدبيره ، وهو يعلم أنه إنما يجزع من الإعطاء
وهو عدوه . وأما الأخذ فهو ضالته وأمنيته ، وإنه لو أعطى أفاعي
سجستان وثعابين مصر وحيات الأهواز لأخذها إذا كان اسم الأخذ
واقعا عليها . فكيف يعطيه هذه الهدية التي جاءته بهذا الكرم ؟ وجعل
أشعب يحتال عليه ليعرف منه السبب . والكندي يتمنع ويتعسر ، ثم باح
بسرّه آخر الأمر قائلاً :

— هذه الهدية التي جاءتنى ، خسائرها أضعاف مكاسبها ، وأخذها
عندي من أسباب الإلحار والدمار .
فقال له أشعب :

— لعل أول خسارة احتمال الشكر عليها يرد نظيرها .
فقال الكندي :

— هذا لم يخطر قط على بال .
فقال أشعب :

— هات إذن ما عندك من الأسباب .
فقال الكندي :

— أول ذلك كراء الحمال الذى ينقلها إلى البيت ، ثم هى على خطر حتى تصير إلى منزلى ، فإذا صارت إلى المنزل صارت سببا لطليب العصيدة والأرز . فإن بعثها فرارا من هذا ، صيرتمونى شهرة وشنعة ، وإن أنا حسبتها ذهبت فى العصائد وأشباه العصائد ، وجذب ذلك شراء السمن ، ثم جذب السمن غيره ، وإن أنا جعلت هذا العسل نبيذاً ، احتجت إلى كراء القدور وإلى شراء الماء وإلى كراء من يوقد تحته وإلى التفرغ له . فإن وليت ذلك الخادم اسود ثوبها وغرمتنا ثمن الأشنان والصابون . وازدادت فى الطمع على قدر الزيادة فى العمل .. فإن تغاضينا وصنعنا النبيذ على رغم ذلك ، وعلم الصديق أو النديم أن عندى نبيذاً دق الباب دق المدل ، فإن حجبناه فبلاء ، وإن أدخلناه فشقاء ، إذ لا بد له من دريهم لحم ومن طسوج نقل وقيراط ريحان ومن أبزار للقدر وحطب للوقود ، وهذا كله غرم ، إن رضيت به فقد شاركت المسرفين ، وفارقت إخوانى من المصلحين ، فإذا صرت كذلك فقد ذهب كسبى من مال غيرى وصار غيرى يكتسب منى . وأنا لو ابتليت بأحدهما لم أقم له ، فكيف إذا ابتليت بأن أعطى ولا آخذ ؟ أعود بالله من الخذلان بعد العصمة .

* * *

أخذ أشعب القربة فأعطى نصفها لعياله وحمل النصف الآخر إلى السوق فباعه بما بلغ . وذهب إلى بنان فأخبره الخبر فضحك ، وضحكا . ثم نهضا . وقال بنان لصاحبه :

— هلم نشترى لك قوساً ، فما معك يكفى لشرائها .

فنظر أشعب إلى النقود في كفه وقال :

— أنا الآن في أمان من الجوع ليلتين أو ثلاثاً أو أربعاً .

فقال بنان :

— أتضيع رأس المال في طعام ليلتين وتقعّد بعد ذلك تتضور ؟

فقال أشعب :

— وهل تريد أن أضيع طعاماً مضموناً في يدى بطعام ما زال هائماً في

الخلاء والسماء قد يصاد وقد لا يصاد ؟

واشتد الخلاف بينهما . واحتال بنان حتى أخذ النقود في يده ،

فجذب صاحبه من كفه ومشى به قسراً إلى البائع فاختر له قوساً وضعها

في يده . فأمسك بها أشعب ونظر فيها وهدأ لمنظرها وارتاحت نفسه

لحملها ..

فقال للبائع : « كم ثمنها ؟ » .

فقال الرجل : « أقبل ثمنها ديناراً » .

فصاح أشعب :

— دينار ! والله لو إني إذا رميت بها طائراً في السماء وقع مشوياً بين

رغيفين ، ما دفعت فيها ديناراً أبداً !

فنظر البائع إلى بنان نظرة المستجير . فتدخل بنان في الأمر وقال

لصاحبه همساً :

— ليس في الثمن غلو . فلقد اشتريت قوسى هذه بأكثر من دينار !

وذكر بنان أن المال معه ، فلم ينتظر رأى صديقه وأسرع فأعطى
البائع الثمن . وجذب ذراع أشعب . وانصرف به ..
لم تمض ساعة حتى كان الصديقان قد خرجا من المدينة وضربا في
الفلوات ، وأوغلا في الخلاء ... كل يحمل قوسه ونشابه وخلفهما
الكلب . وعيونهما شائعة بين الأرض والسماء . يبحثان عن الصيد .
ومضى النهار وهما في مشى وبحث وكد وانتظار ، وإذا الكلب ينبع فجأة
وينطلق في أثر شيء مر أمامهما كالبرق . فنظرا فإذا ظبي قد عن لهما ..
فوقفا ، ووقف قلباهما من الفرح والاضطراب . وأمسك كل بقوسه .
ورمى بنان الظبي فأخطأه . ورماه أشعب فأخطأه وأصاب الكلب .
وهرب الصيد ، ومات الكلب . وجلس الصيادان ، وقد أضناهما
التعب والجوع والفجعة في ثالثهما ...

محتال ظريف

طال جلوس الصديقين وإطرافهما ، واشتد جوعهما ، فرفع أشعب رأسه وقال لصاحبه :

— قد جربنا صيد الأطباء فلنعد إلى صيد الموائد .
ثم نهض ونظر إلى الأفق فوجد نخلا كثيراً فقال :
— أرى قرية قريبة ، هلم إليها .

وأمسك بيد بنان ، وسارا حتى بلغا القرية ، فإذا هما أمام دار قد مات صاحبها ، ونساء القرية يلطمن خدودهن ، ويضربن صدورهن ، ورجالها قد كوى الجزع أفئدتهم ، والميت في صحن الدار قد سخن مأؤه ليغسل ، وخيطة أثوابه ليكفن . فعلم أشعب وبنان ألا أكل ولا طعام في مثل هذه القرية الليلة ، وخطر على بال أشعب خاطر ودفعه الجوع إلى الحيلة ، فغمز صاحبه ، ثم تركه وتقدم إلى الميت فجس عرقه وصاح في الناس :

— يا قوم اتقوا الله لا تدفنوه ، فهو حي ، وإنما عرته بهتة ، وأنا أسلمه إليكم مفتوح العينين بعد يومين !

فقال الناس :

— من أين لك علم ذلك يا هذا ؟

فقال أشعب :

— إن الرجل إذا مات ، برد إسته ، وقد لمست هذا الرجل فعلمت أنه

حي .

فتقدم الناس إلى الميت وجعلوا أيديهم في إسته ، ثم قال بعضهم

لبعض :

— الأمر على ما ذكر الرجل ، فافعلوا كما قال ..

وتركوا أشعب يصنع ما يريد ، فقام إلى الميت فنزع ثيابه ثم ألبسه
عمامة وعلق عليه تائب ، وألحقه الزيت وأخلى له الدار ، وقال للناس :

— دعوه ولا تروعه ! وإن سمعتم له أنيناً فلا تدخلوا عليه !

وخرج أشعب من دار الميت ، وقد شاع الخبر بأن الميت قد ردت إليه
الحياة ، فانهالت الهدايا على أشعب وبنان من كل دار ، حتى ورم
كيسهما فضة وذهبا ، وامتلا رحلهما سمنا وجبنا وتمرا . وجهدا في أن
ينتهزا فرصة للهرب فلم يجداها حتى حل الأجل المضروب ، وأقبل الناس
على أشعب بعد يومين يستنجزونه الوعد ، فقال لهم :

— هل سمعتم لهذا العليل أنيناً ، أو رابتكم منه حركة ؟

فقالوا :

— لا ..

فقال لهم :

— إن لم يكن قد تحرك بعد أن فارقتاه فلم يجيء بعد وقته ، دعوه إلى

غد ، فإذا سمعتم صوته فعرفوني لأحتال في علاجه . ، وإصلاح ما فسد من

مزاجه .

فقالوا : لا تؤخر ذلك عن غد !

فقال : « لا » .

وجاء الصباح وانتشر الضوء ، فجاءه الرجال والنساء أفواجا
وصاحوا به :

— نحب أن تشفى المريض ، وتدع القال والقليل .

فقال أشعب :

— قوموا بنا إليه !

وذهب معهم إلى الميت ، فأبعد عنه التمايم وقال لهم :

— أنيموه على وجهه !

فأناموه .. فقال لهم :

— أقيموه على رجليه !

فأقاموه .. فقال لهم :

— خلو عن يديه !

ففعلوا ، فسقط الميت رأسياً . ولم يدر أشعب ما يفعل ولا ما يقول ،

ولم يزد على أن همس :

— إنه حقيقة ميت !

فسقطت على أشعب النعال ، ولطمته الأكف ، وتناولته القوم
بالصفع والضرب ، وصار إذا رفعت عنه يد وقعت عليه أخرى ، ثم
تشاغل الناس بتجهيز الميت ، فانسل أشعب وبنان هارين حتى أتيا قرية

أخرى على شفير واد ، قد جار عليها السيل ، وأهلها معتمون محزونون
من خشية الغرق ، فتقدم بنان وقد حدثته نفسه أن يبز صديقه في
الاحتياي ، فنظر إليه وابتسم ، ثم صاح في أهل هذه القرية :
— يا قوم ! أنا أكفيكم شر هذا الماء ، وأرد عن هذه القرية ضرره ،
فأطيعوني !

فالتفت الناس إلى بنان في رجاء وقالوا له في الحال :
— وما أمرك ؟
فقال بنان :

— اذبحوا في مجرى هذا الماء بقرة صفراء ، وأتوني بجارية جميلة
عذراء ، وصلوا خلفي ركعتين لله ، فإن فعلتم ذلك اثنى الماء عنكم إلى
هذه الصخراء ، فإن لم يثن قدمي عليكم حلال !
فقالوا جميعا :
— نفعل ...

وقاموا من ساعتهم فذبحوا البقرة ، وزوجوه الجارية وقام بنان إلى
الركعتين يصليهما ، وهو يقول :
— يا قوم ! احفظوا أنفسكم لا يقع منكم سهو في القيام أو في
الركوع ، فمتى سهونا أو هفونا ذهب عملنا باطلاً ، واصبروا على
الركعتين فمسافتهما طويلة !..

وقام بنان للركعة الأولى فأطال الوقوف حتى كادت تنخلع أضلاع
الناس ، وسجد سجدة ظنوا معها أنه قد راح في سبات ، ولم يجرعوا على

رفع الرؤوس خشية أن يذهب جهدهم في غير طائل ، إلى أن جاء وقت
السجدة الثانية ، فأومأ بنان إلى أشعب ، وانسلا ، فأخذنا طريق
الوادي ، وتركنا أهل القرية ساجدين ، لا يدري أحد ما صنع الدهر
بهم !

* * *

مشى أشعب يحمل الزاد والمال ، ومشى خلفه بنان مع الجارية الحسنة
التي زوجها منه وجعلوا يضربون في الفلاة على غير هدى ، حتى
أشرفوا على الهلاك ، وإذا هم يسمعون صهيل خيل ، فالتفتوا فوجدوا
جماعة مسافرين إلى البصرة ، فركبوا معهم ، وقد اطمأنت قلوبهم وأمنوا
على أنفسهم وعلى الغنيمة ، وما كادوا يوغلون في بطن الصحراء ، حتى
عن لهم فارس ، جعل ينظر في القوم ، إلى أن وقع بصره على أشعب ،
ورآه وحيدا منفردا بين الجماعة ، فنزل عن فرسه ، وتقدم إليه وقبل
قدميه ، فنظر إليه أشعب ، فوجد وجهها متهللا ، لفتى أخضر
الشارب ، ملآن الساعد ، قوى العضل ، ظريف اللحظ ، لطيف
الحديث ، فقال له :

— ما لك ؟!

فقال الشاب :

— أنا عبد بعض الملوك هم بقتلى ، فهمت على وجهي إلى حيث تراني
وأنا عندك ومالي مالك .
فقال أشعب :

— بشرى لك وبك !

ورأت الجماعة ذلك ، فغبطت أشعب على هذا العبد وهنأته ، وجعل العبد ينظر فتقتلهم الحاظه ، وينطق فتفتنهم ألفاظه ، ثم قال :

— يا سادة ! إن في سفح هذا الجبل عيناً ، وقد ركبتم فلاة طويلة ، فخذوا من هنالك الماء !

فلووا أعنة الجياد إلى حيث أشار ، وبلغوا الجبل وقد صهرت الهاجرة الأبدان ، فقال لهم :

— ألا تقيلون في هذا الظل الرحب ، على هذا الماء الزلال ؟
فقالوا : أنت وذاك .

فنزل عن فرسه ، وحل منطقتة ، فما استتر عنهم إلا بغلالة تنم على بدنه ، فما شكوا أنه خاصم الولدان ففارق الجنة وهرب من رضوان ، وعمد إلى السروج فحطها وإلى الخيل فحش لها العشب ، وإلى الأمكنة فكنسها ورشها وقد حارت البصائر فيه ووقفت الأبصار عليه ..
فقال له أشعب :

— يا فتى ! ما أطفك في الخدمة وأحسنك في الجملة ! كيف أشكر الله على النعمة بك !

فقال :

— ما سترونه منى أكثر ، أتعجبكم خفتى في الخدمة وحسنى في الجملة ؟ فكيف لو رأيتموني في الجد والفروسية ، أريكم من حذقي طرفاً لتزدادوا بى شغفاً ؟

فقالوا جميعا :

— هات !

فعمد إلى قوس أشعب فأخذها ورمى في السماء سهماً ، وأتبعه بآخر
شق أجواز الفضاء وقال :

— سأريكم نوعاً آخر !

ثم عمد إلى كنانة بنان فحملها وإلى أكرم جواد من جياد القوم
فامتطاه ، ثم رمى أحد الجماعة بسهم أثبتته في صدره ، وعاجل آخر
بسهم طيره من ظهره .

فصاح أشعب :

— ويحك ! ما تصنع ؟

فقال الفتى ، وقد تغير صوته :

— أسكت يا لكع ! فليشد كل منكم يد رفيقه وإلا اختطفت

روحه !

فلم يدر القوم ما يصنعون !.. فخيّلهم مربوطة وسروجهم مخطوطة
وأسلحتهم بعيدة ، وهو راكب وهم على أقدامهم ، والقوس في يده
يرشق بها الظهور ، ورأت الجماعة الجد والعزم في عين الفتى ، فشده
بعضهم بعضاً من الخوف وبقي أشعب وحده لا يجد من يشده يده ، فقال
له الفتى :

— اخرج بجلدك عن ثيابك ومالك ، لا أم لك !

ثم نزل عن فرسه وجعل يصفع الواحد منهم بعد الآخر ، وينزع ثيابه

وكيس ماله وزاده ، حتى جردهم مما يملكون ، وعاد فاعتلى فرسه ولكزه
لكزة انطلقت به انطلاق السهم في كبد الفلاة .

* * *

جزع القوم فقد فقدوا الزاد ، وهم الآن لا يملكون الذهاب
ولا الرجوع ، ووقعوا في حيرة من أمرهم ، فقال قائل إن خير السبل
امتطاء خيلهم والإمعان في السير إلى البصرة وهي من موضعهم . هذا
أقرب البلاد إليهم ، فتزودوا من ماء العين ووثبوا إلى أفراسهم ، وظلوا
سائرين حتى لاحت لهم قرية في طرف من أطراف البصرة ، وكان الجوع
قد أوشك أن يقتلهم ، فما بلغوا أول دار من دور القرية حتى وثبوا من
فوق أفراسهم فوجدوا أنفسهم أمام رجل شيخ قد جلس على باب داره ،
فنظر إليهم وقال :

— من أنتم ؟

فقالوا :

— أضياف لم يذوقوا شيئاً يؤكل منذ ليال ثلاث .

فابتسم الرجل وقال :

— اجلسوا !

وسكت طويلاً ، ثم نظر في وجوههم ملياً ، ثم تنهد ، ثم ابتسم ، ثم

تنحنح وقال لهم :

— ما رأيكم يا فتيان في زبدة متوجة بعجوة خبير الواحدة منها تملأ

الفم ، ويوحل فيها الضرس .. عليها لبن قد حلب من نوق مسمنة ،

أُتشتهنوا يا فتیان ؟

فقالوا جميعا :

— إی واللہ نشتہیہا !.. فقہقہ الشیخ وقال :

— وعمکم ایضا یشتہیہا .

وصمت لحظۃ ، ثم قال :

— ما رأیکم یا فتیان فی عصیدۃ من دقیق قد نخل حتی صار کأنه

سحالة الذهب ، وسمن عربی بصری أنضج حتی قال « بق بق بق » ،

على حواشیہا رقاق ملفوف بلحم قد نعم قطعہ ، وفوه بالأبازیر ، ومزج

بالبصل ، وقلی فی الدهن ، أفشتهنونا یا فتیان ؟

فاشرأب کل منهم إلی وصفه ، وتحلب ریقهم وتلمظوا وتمطقوا ،

وقالوا :

— إی واللہ نشتہیہا ، فقہقہ الشیخ وقال :

— وعمکم واللہ لا ییغضہا ، وسکت برهۃ ، ثم قال :

— ما رأیکم یا فتیان فی عنزۃ من نجد قد أکلت الشیخ والقیصوم

والهشیم ، حتی وری مخها ، وكثر شحمها وطاب لحمها ، تنضج لکم

من غیر امتحاش ، أو إنهاء ، وتقدم إلیکم علی خوان منضد بالبقل

والخبز ، فتوضع بینکم تتساقط عرقاً وتتسایل مرقاً ، أفستهنوا

یا فتیان ؟

فقالوا :

— إی واللہ نشتہیہا !

فقال الرجل :

— وعمكم والله يرقص لها !

* * *

ولم تطق الجماعة أكثر من ذلك فوثب بعضهم إلى الرجل بالسيف

قائلين :

— ما يكفى ما بنا من عض الجوع ، حتى تسخر منا .

وقاموا وانفضوا عنه وهم يسبونهم ويدعون عليه .. وأسرعوا في
الدخول إلى مدينة البصرة حيث تفرقوا ، وذهب كل لشأنه ، وأخبرت
الجارية زوجها « بنان » أن لها أهلا في البصرة ، يضيفونهما فانطلق بنان
إلى أهلها ، وترك أشعب وحده ..

مع الخليفة

جلس أشعب على رأس الطريق وحيداً غريباً في هذا البلد لا يعرف
أحداً فيه ، ولا مال معه ولا زاد ، وقد أضر به الجوع ، فجعل يتهدد
ويقول لنفسه :

— لعن الله المال الحرام ! كلما جمعناه ، ذهب عنا سريعاً ، وعدنا
شرا مما كنا !

وسمع خلفه جلبة ، فالتفت ، فرأى عشرة رجال مجتمعين ، فصاح :

— إنه الفرّج .

ونفض نشيطاً ، وانسل فدخل وسطهم وهو يقول في نفسه :

— ما اجتمع هؤلاء إلا لوليمة !

ولم يلبث أن جاء من يقود هؤلاء العشرة ويمضي بهم ، حتى انتهوا إلى
زورق قد أعد لهم ، فأدخلوا الزورق فقال أشعب لنفسه :

— هي نزهة .

ودخل معهم ، وإذا هو يرى الرجال العشرة قد قيدوا بالحديد ، وقيد
هو معهم ، وإذا هو يعلم أن هؤلاء عشرة من الزنادقة ذكروا بالاسم لأمر
المؤمنين ، فأمر أن يحملوا إليه ، فجمعوا له ، ولم يلبث أشعب أن وجد
الزورق قد وصل إلى بغداد ، وإذا هو يساق ضمن العشرة ، حتى أدخلوا

على أمير المؤمنين فجعل يدعو بأسمائهم رجلاً رجلاً ، فيأمر بضرب رقابهم ، حتى استوفى العدد وبقي أشعب ، فدهش أمير المؤمنين وقال للموكلين :

— من هذا ؟

فقالوا :

— والله ما ندرى يا أمير المؤمنين ، غير أنا وجدناه مع القوم فجئنا به .

فالتفت أمير المؤمنين إلى أشعب قائلاً :

— ما قصتك ؟ .. ويلك !

فصاح أشعب :

— يا أمير المؤمنين ! امرأتى طالق إن كنت أعرف من أحوال هؤلاء

شيئاً ولا مما يدينون الله به ، إنما أنا رجل طفيلي رأيتهم مجتمعين فظننتهم ذاهبين لدعوة .

فقال أمير المؤمنين :

— ليس هذا مما ينجيك منى ، اضربوا عنقه !

فصاح أشعب :

— أصلحك الله ، إن كنت ولا بد فاعلاً فأمر السيف أن يضرب

بطنى بالسيف فإنه هو الذى ورطنى هذه الورطة !

فالتفت أمير المؤمنين إلى رجاله وقال :

— يؤدب .

فخرجوا بأشعب وهو يتنفض فى ثيابه رعباً ، وكان وزير الخليفة

قائماً على رأسه ، فلما رأى ذلك لم يستطع كتمان ابتسامة ، وما تمالك أن قال :

— يا أمير المؤمنين هب لي ذنبه ، وأحدثك حديثاً عجيباً عن نفسى وقد عشت مثله حياة التطفيل ليلة !
فاشتاق أمير المؤمنين إلى الحديث وقال :

— قل يا أيها الوزير ..

قال الوزير :

— خرجت يا أمير المؤمنين من عندك ليلة ، فطفت في سكك بغداد ، فأنتهيت إلى موضع ، فشملت روائح أبازير قدور قد فاح طيبها ، فتاقت نفسى إليها ، فوقفت على خياط فقلت :

— لمن هذه الدار ؟

قال :

— لرجل من التجار .

قلت :

— ما اسمه ؟

قال :

— فلان بن فلان .

فنظرت إلى الدار فإذا بشباك فيها مطل ، فرأيت كفاً قد خرجت من الشباك قابضة على عضد ومعصم ، فشغلنى يا أمير المؤمنين حسن الكف والمعصم عن رائحة القدور ، وبقيت باهتاً ساعة ، ثم أدركنى ذهنى

فقلت للخياط :

— أهو ممن يشرب ؟

قال :

— نعم وأحسب إن عنده الليلة دعوة ، وليس ينادمه إلا تجار عملة
مستورون .

فبينما أنا كذلك إذ أقبل رجلان نبيلان راكبان من رأس الدرب ، فقال
الخياط :

— هؤلاء منادموه .

فقلت :

— ما اسماهما ؟ .. وما كناهما ؟

قال :

— فلان وفلان .

فحركت دابتي وداخلتهما ، وقلت لهما :

— جعلت فداكما ، قد استبطأكما أبو فلان أعزه الله .

وسايرتهما حتى بلغا الباب ، فأدخلاني وقدماني ، فدخلنا ، فلما
رآني صاحب المنزل لم يشك أني منهما بسبيل ، أو قادم قدمت عليهما من
موضع ، فرحب بي وأجلسني في أفضل مكان ، وجيء بالمائدة وعليها
خبز نظيف ، وأتينا بتلك الألوان ، فكان طعامها أطيب من ريحها ،
فقلت في نفسي :

— هذه الألوان قد أكلتها ، وبقي الكف والمعصم كيف أصل إلى

(أشعب)

صاحبتهما ؟

ثم رفع الطعام ، وجاعونا بوضوء فتوضأنا ، وصرنا إلى بيت المنادمة
فإذا أجمل بيت يا أمير المؤمنين ، وجعل صاحب المنزل يلطف بى ويميل
علىّ بالحديث ، والندماء لا يشكون أن ذلك منه على معرفة متقدمة ،
حتى إذا شربنا أقداحاً ، خرجت علينا جارية كأنها بان ، تتثنى
كالخيزران ، فأقبلت فسلمت غير خجلة ، وثبت لها وسادة فجلست ،
وأتى بالعود فوضع فى حجرها ، فجسته فاستبنت فى جسها حذقها ، ثم
اندفعت تغنى :

توهمها طرفى فأصبح خدها
وفيه مكان الوهم من نظرى أثر
وصافحها كفى فالم كفهـا
فمن مس كفى فى أناملها عقر
فطربت يا أمير المؤمنين لحسن غنائها ، ثم اندفعت تغنى :
أشرت إليها : هل عرفت مودتى ؟
فزدت بطرف العين : إنى على العهد
فحدث عن الإظهار عمدا لسرها
وجادت عن الإظهار أيضا على عمد
فصحت : « يا سلام ! » .. وجاءنى من الطرب ما لا أملك نفسى
معه ، ثم اندفعت فغنت الثالث :

أليس عجيباً أن يتأً يضمنى
وإيباك لا نخلو ولا نتكلم ؟
سوى أعين تشكو الهوى بجفونها
وتقطيع أنفاس على النار تضرم
إشارة أفواه وغمز حواجب
وتكسير أجفان وكف يسلم

فحسدتها يا أمير المؤمنين على حذقها ومعرفتها بالغناء ، وإصابتها لمعنى
الشعر ، وأنها لم تخرج عن الفن الذى ابتدأت به ، فقلت : « بقى عليك
يا جارية .. » . فضربت بعودها الأرض وقالت : « متى كنتم تحضرون
مجالسكم البغضاء ! » فندمت على ما كان منى ، ورأيت القوم كأنهم
تغيروا لى ، فقلت : « أما عندكم عود غير هذا ؟ » قالوا : « بلى » ،
فأحضروا لى عوداً فأصلحت من شأنه ، ثم غنيت :

ما للمنازل لا يجين حزيننا
أصممن أم قدم المدى فليتنا
راحوا العشيّة روحة منكورة

إن متن متنا أو حين حيننا
فما أتممته حتى قامت الجارية فأكبت على رجليّ تقبلها وقالت :
— معذرة إليك فوالله ما سمعت أحداً يغنى هذا الصوت غناءك !
وقام مولاهما وأهل المجلس ففعلوا فعلها ، وطرب القوم والله
واستحثوا الشراب ، فشربوا بالكاسات والطاسات ...

ثم اندفعت أغنى :

أبى الله أن تمسى ولا تذكرينى
وقد سفحت عيناى من ذكرك الدما
فردى مصاب القلب أنت قتلته
ولا تتركيه ذاهل العقل مغرما
إلى الله أشكو بخلها وسماحتى
لها غسل منى وتبذل علقما
فطرب القوم حتى خرجوا من عقولهم ، فأمسكت عنهم ساعة حتى
تراجعوا ، ثم اندفعت أغنى الثالث :

هذا محبك مطوى على كـمـده
حرى مدامعه تجرى على جسده
له يد تسأل الرحمن راحته
مما جنى ويد أخرى على كبده
فجعلت الجارية تصيح :

— هذا هو الغناء والله يا سيدى ، لا ما كنا فيه !
وسكر القوم ، وكان صاحب المنزل حسن الشرب صحيح العقل ،
فأمر غلمانہ أن يخرجوهم ويحفظوهم إلى منازلهم وخلوت معه .
فلما شربنا أقداحا قال :

— يا هذا ، ذهب ما مضى من أيامى ضياعا إذ كنت لا أعرفك ، فمن
أنت يا مولای ؟

ولم يزل يلح حتى أخبرته الخبر ، فقام وقبل رأسى وقال :
— وأنا أعجب يا سيدى أن يكون هذا الأدب إلا لمثلك وإنى لى أن
أجالس رجال الخلفاء ولا أشعر !
ثم سألنى عن قصتى فأخبرته ، حتى بلغت خبر الكف والمعصم ...
فقال للجارية :

— قومى فقولى لفلانة تنزل .
ثم لم يزل ينزل لى جواريه واحدة بعد أخرى ، وأنظر إلى كفها
ومعصمها وأقول :
— ليست هى .

حتى قال : والله ما بقى غير زوجتى وأختى ، والله لأنزلتهما إليك .
فعمجت من كرمه وسعة صدره فقلت :
— جعلت فداك ، أبدأ بالأخت قبل الزوجة ، فعساها هى !
فبرزت ، فلما رأيت كفها ومعصمها .
قلت : هى هذه !

فأمر غلماناه فمضوا إلى عشرة مشايخ من جلة جيرانه ، فأقبلوا بهم ،
وأمر بيدرتين فيهما عشرون ألف درهم ، فقال للمشايخ :
— هذه أختى فلانة أشهدكم أنى قد زوجتها من سيدى الوزير ،
وأمهرتها عنه عشرين ألفا .

ثم دفع إليها البدرة ، وفرق الأخرى على المشايخ وقال لهم :
« انصرفوا » .

ثم قال لى : « يا سيدى ، أمهد لك بعض البيوت فتنام مع أهلك ؟ » .

فاحتشمنى ما رأيت من كرمه ، فقلت :

— بل أحملها إلى منزلى .

قال : « ما شئت » .

فحملتها إلى منزلى ، فوالله يا أمير المؤمنين لقد أتبعها من الجهاز ما ضاق عنه بعض بيوتنا ...! » .

عجب أمير المؤمنين لحديث وزيره ، ولتطفيله الظريف تلك الليلة ، فأمر بإحضار أشعب الطفيلى ، فجاء أشعب يتعثر خوفاً ، فابتدره الخليفة قائلاً :

— هل لك فى « ثريدة » مغمورة بالزبد ، مشققة باللحم ، تفوح

بروائح الأباذير ؟

فقال أشعب :

— وأضرب كم ؟

فكتم أمير المؤمنين ضحكة وقال :

— بل تأكلها من غير ضرب .

فنظر أشعب إلى الخليفة ملياً ثم قال :

— هذا ما لا يكون ، ولكن كم الضرب فأتقدم على بصيرة ؟

فضحك الخليفة ، وضحك الوزير ، ثم التفت الخليفة إلى أشعب

قائلاً :

— قد علمت أنك ذو بصر بالطعام ، فما تقول في « اللوزينج »
و « الفالودج » ... أيهما أطيب ؟
فأجاب أشعب :

— يا أمير المؤمنين ، لا أقضى على غائب .
فأمر الخليفة ، فأحضرت مائدة عليها هذان اللونان ، وقال أشعب :
— اقض بينهما الآن .

فانقض أشعب من فرط جوعه على الخوان ، وجعل يأكل من
« الفالودج » ساعة ، ومن « اللوزينج » ساعة وهو ساكت لا ينبس
بجرف ، وقد انتفخ فمه بالطعام وازدحم حلقه من الازدرد ، فقال
الخليفة :

— قل ... أيهما أطيب ؟

وقال الوزير :

— اقض لأحدهما .

فتردد أشعب وحار بين اللونين ، ثم عاد فأخذ من هذا القمة ومن ذاك
لقمة ، وقال :

— يا أمير المؤمنين ، كلما أردت أن أقضى لأحدهما أدلى الآخر
بحجته .

فضحك الخليفة واستظرفه ، وقال له :

— تشة على ... أى لون تريد ؟

فاطمأن أشعب وقال مترنما :

ألا ليت خبزا قد تسربل رائباً
وخيلاً من البرني فرسانها الزبد
فأمر الخليفة أن يحضر له ما اشتهى ، وجعل ينظر إليه وهو يأكل حتى
فرغ ، فقال له :

— شبعت ؟

فقال أشعب :

— نعم أطل الله بقاء أمير المؤمنين .

وتأمل الخليفة ثياب أشعب فلم ترقه ، وقال له :

— لست أرى عليك كسوة رائعة !

فلم يجد أشعب ما يقول ، ثم تفكر وقال :

— كانت عليّ أصلحك الله ثياب نظيفة ، غير أني قبل أن يأتوا بي إلى

أمير المؤمنين كانت قد أخذتني إغفاءة ، فرأيت رؤيا نصفها حق ونصفها

باطل .

فقال الخليفة دهشاً :

— وكيف ذلك ؟

فقال أشعب :

— رأيت إنني أحمل بدرة من ذهب ، فمن شدة ثقلها على كنت أسلح

في ثيابي ، ثم انتبهت ، فإذا أنا بالسلح ... ولا بدرة .

فضحك أمير المؤمنين حتى استند إلى الوسادة وقال :

— لحقق لك التصف الآخر ، ولكن أخبرني قبل ذلك ، من أنت ؟

فقال أشعب :

— من المدينة يا أمير المؤمنين .

فقال الخليفة :

— وكيف وجدوك بالبصرة ؟

وتذكر أشعب كل ما وقع ، فرأى الخير في أن يوجز فقال :

— خرجت من المدينة للصيد فضلت ، وإذا أنا في البصرة ...

فنظر أمير المؤمنين إليه ملياً وقال له :

— وهل صدت شيئاً ؟

فتنحس أشعب وقال كالمخاطب لنفسه :

— صدت الكلب .

فضحك الخليفة ، وأعجبه حديثه ، ولبث يصغي إليه وإلى نوادره

ساعات طويلة ، ثم قال له آخر الأمر :

— سل حاجتك !

فقال أشعب :

— كلب صيد أصطاد به .

فقال الخليفة متعجباً ضاحكاً :

— قد أمرنا لك بكلب تصطاد به .

فقال أشعب :

— وغلام يقود الكلب .

فقال أمير المؤمنين :

بـ قد أمرنا لك بغلام .

فقال أشعب :

— ونخادم تطبخ لنا الصيد .

فقال الخليفة :

— وأمرنا لك بخادم .

فقال أشعب :

— ودار نأوى إليها .

فقال الخليفة :

— أمرنا لك بدار .

فقال أشعب :

— بقى الآن المعاش .

فقال أمير المؤمنين .

— قد أقطعناك ألف « جريب » عامرة ، وألف « جريب » غامرة .

فقال أشعب :

— وما الغامرة ؟

فقال الخليفة :

— التى لا تعمر .

فقال أشعب من فوره :

— فأنا أقطع أمير المؤمنين خمسين ألفا من صحارى نجد وفيافى بنى

أسد !

فضحك أمير المؤمنين وقال :

— يجعلها لك إذن كلها عامرة .

فقال أشعب :

— لم يبق الآن إلا شيئان .

فقال الخليفة :

— هات ...

فقال أشعب :

— أن تقيم معي في هذه الضياع جارية حسنة الصوت كنت أعلمها

الغناء بالمدينة ، يقال لها « رشا » !

— وكيف هي ؟

فتنهذ أشعب وقال مترنما :

كأنها أفرغت في قشر لؤلؤة

في كل جارية منها لها قمر

فقال الخليفة :

— قد زوجناك منها وأمهرناها عنك عشرين ألف درهم ! تلك

واحدة ، فما الأخرى ؟

فقال أشعب :

— الأخرى أن تسمح لي يا أمير المؤمنين أن أعزل صناعة التطفيل ،

وأن أستخلف عليها خليفة من بعدى ، وأن أكتب بذلك عهداً إلى صديق

لي يدعى بنان ليكون هو منذ اليوم إمام الطفيليين وعريفهم .

فضحك الخليفة وقال :

— وذلك أيضا لك .

ثم دعى بالكاتب والقرطاس ، وقال لأشعب يلى عهده ..

فقال أشعب للكاتب :

— اكتب :

« هذا ما عهد أشعب إلى بنان حين استخلفه على إحياء سنته واستنابه في حفظ رسومه من التطفيل على أهل المدينة ، وما يتصل بها من أكنافها ، ويجرى معها من سوادها وأطرافها ، وذلك لما توسمه فيه من قلة الحياء ، وشدة اللقاء ، وكثرة اللقم ، وجودة الهضم ، ولما رآه أهلاله من شدة مكانه في هذه الرفاهية المهملة التي فطن لها ، والرفاعية المطرحة التي أهتدى إليها ، والنعم العائدة على لابسها بملاذ الطعوم ، ومناعم الجسوم ، متوردا على من اتسعت موارد ماله ، وتفرغت شعب حاله ، وأقدره الله على غرائب المأكولات ، وأظفره ببدايع الطيبات ، آخطا من كل ذلك بنصيب الشريك المناصف وضاربا فيه بسهم الخليط المفاوض ، وهذا عهدى إليه ، وحجتى عليه ، فليكن بأوامره مؤتمرا ورسومه متبعا إن شاء الله ، وبالله التوفيق وعليه التعويل ، وهو حسبنا جميعا ونعم الوكيل ... » .

وسكت أشعب ونظر فإذا الخليفة ووزيره يتقطعان ضحكاً ، وهذا

الخليفة ، فقال لأشعب :

— هل بقيت لك حاجة لم تقض ؟

فقال أشعب :

— نعم ، حاجة أخيرة .

فقال الخليفة :

— قل ...

فقال أشعب :

— يأذن لي أمير المؤمنين في تقبيل يده .

فقال الخليفة :

— أما هذه فدعها .

فقال أشعب :

— ما تمنعني شيئاً أحب إليّ منها !

وأسرع إلى يد أمير المؤمنين فاخطفها اختطاف الجائع للرغيف ،

ورفعها إلى فمه ، وأشبعها لثماً وتقبيلاً ..

فهرس

صفحة

١١ مقدمة
١٤ أشعب وجارسته رشا
٢١ أشعب والكندى البخيل
٤١ أشعب وبنان
٥٤ أشعب فى مكة
٦٤ أشعب فى الحمام
٦٨ أشعب والحلاق
٧٢ على الخوان
٨٢ حيلة شيطانىة
٩٠ فى العرس
١٠٤ ضيف ثقيل
١١٦ محتال ظريف
١٢٦ مع الخليفة

رقم الإيداع ٣٦٥٣ / ١٩٩٠

الترقيم الدولي 6 - 0587 - 11 - 977



الشمس ٢٧٥ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

To: www.al-mostafa.com